كتب غيرت مجرى العالم

دليل السياسي الناجح

وصايا السياسى الفرنسى الداهية الكاردينال
«جول مازاران» للدخول فى عالم السياسة والشهرة



نقله إلى العربية وقدم له وعلق عليه

خميس حسن



دليل السياسي الناجح

وصايا السياسي الفرنسي الداهية الكاردينال
«جول مازاران» للدخول في عالم السياسة والشهرة

نقله إلى العربية وقدم له وعلق عليه
خميس حسن



مازاران، جول.
دليل السياسى الناجح : وصايا السياسى
الفرنسى الداهية الكاردينال جول مازاران
للدخول فى عالم السياسة والشهرة / نقله إلى
العربية وقدم له وعلق عليه خميس حسن
.- ط١. - القاهرة: دار الطلائع للنشر
والتوزيع، ٢٠٠٦
١٢٨ ص ؛ ١٧×٢٤ سم.
تدمك ٧ ٤٤٣ ٢٧٧ ٩٧٧
١- السياسة - أدلة
أ- حسن، خميس (مترجم) ب - العنوان
٣٢٠,٠٢٥

رقم الإيداع : ١٠١٢٤ / ٢٠٠٦
الترقيم الدولي : 977-277-443-7



للنشر والتوزيع والتصدير
٥٩ شارع عبد الحكيم الرفاعي - مدينة نصر - القاهرة
تليفون: ٢٧٤٤٦٤٢ - ٢٧٢(٢٠٢)٦٣٨٩٣٧٢ فاكس : ٦٣٨٠٤٨٣(٢٠٢)
Web site : www.altalae.com E-mail : info@altalae.com

تصميم الغلاف : إبراهيم محمد إبراهيم

مطابع العبور الحديثة بالقاهرة ت : ٦٦٥١٠١٣ فاكس : ٦٦٥١٥٩٩

◆ مقدمة ◆

من الحقائق الواضحة أن للقادة دورهم المتميز في صناعة التاريخ، بما وهبهم الله من موهبة خاصة، وقدرة متفردة تميزوا بها عن سائر الناس. فالبشرية تحتفظ في تاريخها الطويل بقائمة طويلة لأشخاص أثروا في مسار التاريخ، وساهموا في صناعة مراحل مهمة منه، ورسموا أبعاد الحقب اللاحقة بأعمالهم البارزة. ونظرًا لأهمية الأفراد الأفذاذ في المسيرة التاريخية للشعوب والمجتمعات، فقد شاع في الكثير من الدراسات استخدام اصطلاح (الدور التاريخي) و(الشخصية التاريخية) و(البطل التاريخي) عند الحديث عن عظماء خالدين وقادة وعلماء أثروا في الحياة البشرية وساهموا في رسم مساراتها، كل في مجاله: السياسي، أو العسكري، أو العلمي، أو الاجتماعي، أو الديني. بحيث صارت خطواتهم، وأفعالهم محل دراسة الأجيال التالية لهم.

والشخصية التي يدور حولها هذا الكتاب، هي شخصية رجل استطاع أن يرتقي من قاع السلم الاجتماعي إلى أن يصبح الحاكم المسيطر في بلد غير بلده، وبين أهل غير أهله، ساعده على ذلك ذكاؤه المتوقد، ونفسه الطموحة ، ومثابرته وكفاحه المتواصل من أجل تحقيق ما تصبو إليه نفسه وما خطط له.

إن جول مازاران الفرنسي الجنسية، الإيطالي الأصل والمولد. رئيس وزراء لويس الرابع عشر، وحامي الملكية، ورجل فرنسا القوي الذي حولها من دولة ضعيفة تأكلها النزاعات والصراعات الدينية، وتنافس النبلاء والإقطاعيين فيما بينهم على السلطة،

وأطماع الدول المجاورة فيها وخاصة إسبانيا، حول بذكائه وطموحه فرنسا إلى دولة مرهوبة الجانب، وسيدة أوربا في القرن السابع عشر.

نجح مازاران في أن يحكم فرنسا وحده، فقد استطاع بقوة شخصيته وذكائه المتوقد أن ينقذ البلاد من خراب مؤكد، كما استطاع بحنكة سياسية، عجز البلاط عن إدراكها في وقتها، أن يترك بين يديّ لويس الرابع عشر دولة تفرض على الدول الأخرى احترامها، وتخشاها أوربا بأسرها.

لقد اختلف المؤرخون حول مازاران، كما هو الشأن حول كل قائد عظيم أو زعيم كبير، البعض رفعه إلى مرتبة أعظم وزير حكم فرنسا خلال ألف سنة!! والبعض الآخر هبط به إلى مرتبة اللصوص والوصوليين، الذي استغل سلطاته لتحقيق أطماعه الشخصية وللإثراء على حساب جوع الشعب وفقره. وبين هؤلاء وهؤلاء يقف مازاران لا يستطيع الدفاع عن نفسه، فقد ترك أعماله للتاريخ ليحكم عليها، ويقيّمها.

وبما أن القادة أو الزعماء التاريخيين لا يعملون في فراغ، بل هناك أحداث وظروف تؤثر فيهم وعلى قراراتهم، ظروف أثّرت فيهم وأثّروا فيها، وساعدوا بعبقريتهم على تشكيل الأحداث التي مروا بها، من أجل ذلك كان منهجنا في دراسة شخصية مازاران هو عرض الأحداث التاريخية التي سبقته وتلك التي صاحبها بشيء من التفصيل الذي أرجو أن يعذرني فيه القارئ العزيز، ولا يرى فيه إطالة بعيدة عن الموضوع.

إننا إذا نظرنا إلى حياة مازاران وإنجازاته السياسية نرى أنها تركزت في بناء سلطة ملكية مطلقة والقضاء المبرم على سلطة النبلاء والإقطاع، وجعل الملك هو صاحب القرار والمتفرد بالسلطة، هذا الإنجاز لا تدرك قيمته دون معرفة كفاح من سبقوه في تحقيق هذا الهدف، وكيف فشلوا فيما نجح هو فيه، لذا كان هذا التمهيد الطويل لنشأة الدولة الفرنسية، وبداية تكون الملكية، هذه الصفحات من التاريخ التي ربما تكون مجهولة للقارئ العربي غير المتخصص، والاطلاع عليها يعطي قيمة كبيرة لفهم الأحداث التاريخية في الماضي، فمن المعروف أن فرنسا كان لها دور كبير في الحروب الصليبية التي أثرت بشكل كبير على تاريخ المنطقة العربية في القرون الوسطى، بل يمكن القول أنها قامت بالدور الأكبر في هذه الحروب.

نأتي بعد ذلك إلى العمل الأهم والأبرز ، والذي هو جُلُّ اهتمام هذا الكتاب، ألا وهو كتاب (الوصايا السياسية) أو (وصايا للسياسيين) (Brviare de politicians) أو الدليل، كما سماه البعض، الذي تركه مازاران شاهدًا على فكره السياسي وخلقه الاجتماعي، وأسلوبه في حياته وفي تصريف شئونه السياسية، ووضع فيه خلاصة تجاربه السياسية وفكره.

قد تصدم بما جاء في هذا الكتاب من أساليب السياسة والتدبير، فالكثير منها مخالف لما تعارفنا عليه نحن الناس العاديين - فمن منا يرضى بالرشوة، والكذب والنفاق، والتملق، لتحقيق غرض ما؟!

قد يجد البعض أن هناك شبها بين وصايا مازاران، وكتاب الأمير لميكيافيللي، فكلاهما يقوم على مبدأ واحد، وتحكمه ثقافة واحدة.

والكتاب مليء بالأخلاقيات السائدة في ذلك العصر الذي عاشق فيه مازاران، بل والسائدة حتى عصرنا هذا، سواء كانت هذه الأخلاقيات حميدة أم بغيضة.

كما أن هناك مواقف مذكورة في الكتاب يمكن تطبيقها على ما يحدث في عالمنا سواء في الشرق أو الغرب، وذلك رغم مخالفة هذه التصرفات والسلوكيات لما يدعو إليه الدين، أو ما ألفه العرف الاجتماعي، أو الخلق القويم.

من أجل ذلك ومن أجل ما سبق كان تقديم هذا الكتاب، وأترك لك - أيها القارئ العزيز - الحكم على ما جاء في الكتاب ، فالحق واضح أبلج، والباطل ضعيف لجلج، ولا يصعب عليك - بقليل من الفطنة - التمييز بينهما. وبعد ذلك أقول لك إنه يكفينا أن تدرك من هذا الكتاب تلك الأخلاقيات التي تحكم الثقافة الغربية، فهي ليست وليدة اليوم، بل هي عميقة الجذور، متأصلة في النفوس، تحتاج إلى وعي من يتعامل معها، وإلى أن يجيد فنون اللعبة.

خميس حسن

◆ فرنسا .. النشأة والتطور ◆

*** الجذور الأولى :**

سادت فرنسا في تطورها ، وانتقالها من طور البداوة والبربرية والتخلف إلى أن تصبح رائدة لشعوب أوربا ، سارت على سنن التاريخ، وجرى عليها ما جرى على بقية الشعوب، ولم تصل الأمة الفرنسية إلى ما وصلت إليه إلا بعد رحلة مخاض طويلة امتزجت بالدماء والصعاب. وإن كان موضوعنا في هذا الكتاب عن شخصية جول مازاران وأستاذه ريشيليو، فقد كان لابد أن نتعرض- كما ذكرنا في المقدمة - إلى تلك الظروف التاريخية والسياسية التي عاشا فيها، والقيادات السياسية لا تعمل في فراغ، ولا تمتلك العصا السحرية لتغيير مجرى الأحداث، وإنما هناك ملابسات وعقبات وأعداء متربصون وحساد وناقمون، وقبل كل ذلك المزاج العام الذي يسود مجتمعاتهم، والذي شكلته سنوات طويلة من العمل والكفاح، والنجاحات والإخفاقات.

لذلك، ولفهم طبيعة دور الزعامات التاريخية، لابد لنا من دراسة التاريخ الذي عاشوا فيه، أو لنقل لابد من عمل (فلاش باك) لتلك الأحداث، فهي لابد مؤثرة.

نبدأ من البداية، وربما تكون البداية بعيدة جدًا، نبدأ من أوائل القرن الخامس لنمسك الخيط من أوله، ونعاصر لحظة بلحظة كيف يتكون هذا الخيط ويتجمع ويلتف ليكون هذا الكيان الكبير.. فرنسا.

ولنبدأ من القرون الوسطى (من أوائل القرن الخامس إلى أواخر القرن الخامس عشر) .

◆ تكون الدولة الفرنسية ◆

غزوات البرابرة :

ابتداء من سنة ٤٠٦ م أخذت بلاد الغال (فرنسا الحالية) تتعرض، مثل بقية أنحاء الإمبراطورية الرومانية، لغزوات قبائل آتية من الشمال أسماها المؤرخون (البرابرة) (قياسا على المستوى الذي بلغته الإمبراطورية الرومانية آنذاك) وتتكون من قبائل الوندال والفيزيقوط والبورغوند والفرنكيين أو الفرنجة - وهؤلاء الأخيرون أعطوا غالبا اسمهم، فأصبحت تعرف باسمها الحالي (فرنسا).

وتعود هذه القبائل باسمها إلى العِرْق الجرماني، لذلك كثيرا ما تسمى غزواتها في القرن الخامس باسم الغزوات الجرمانية.

ويوما بعد يوم تزداد الغزوات الجرمانية وتجد في تلك البلاد ملاذًا آمنا وخيرًا وافرًا حتى بدأت أعدادها تتزايد وتشكل القوة الغالبة حتى كانت هي الطبقة الحاكمة وصاحبة السلطان والنفوذ بما اقتطعته من أراض تابعة للإمبراطورية الرومانية الضعيفة.

وقد شكل تاريخ فرنسا ثلاث أسر تولت الحكم وتوارث أفرادها المُلْكَ جيلا بعد جيل حتى قضت الثورة الفرنسية على الملكية سنة ١٧٨٩ .

ونعرض الآن تاريخ هذه الأسر بإيجاز :

١ - الأسرة الميروفنجية (من سنة ٤٨١ - ٧٥١) Dynastie Mérovingiene

مؤسسها هو أحد قادة الغزوات البربرية، ويدعى كلوفيس (٤٦٥ - ٥١١) وكان قائدًا للفرنجة أو (الفرنكيين) وبعد عدة سنوات من المعارك والحروب الطاحنة بين الغزاة أنفسهم، تمكن كلوفيس من أن يفرض سيطرته ويوحد بلاد الغال (وذلك سنة ٤٨١) التي أصبحت تسمى بلاد الفرنجة (أو بلاد الفرنك) أو فرنسا.

وفي سنة ٤٩٦ م اعتنق كلوفيس الديانة المسيحية، وفي سنة ٥١١ م جعل باريس عاصمة ملكه، وهكذا أصبحت فرنسا مستقلة عمليا عن الإمبراطورية

الرومانية التي بدأ نجمها في الأفول بعد سنوات طويلة من القوة والسيطرة.

لكن الحضارة التي أصبحت غالبة عسكريا وسياسيا في فرنسا وفي سواها من المناطق في أوربا، وهي الحضارة الجرمانية (البربرية) لم تتمكن من إزالة الطابع الحضاري الروماني، بل إنها هي نفسها تبنتها وسارت بها، وكانت الديانة المسيحية عنصرًا أساسيا في عملية الاستيعاب والهضم الحضاريين.

بعد موت كلوفيس (سنة ٥١١ م) انقسمت البلاد إلى ثلاث ممالك ما انفكت تتقاتل فيما بينها، كما قوي نفوذ الحجاب Les maires du palais على حساب سلطة الملوك الذين أطلق عليهم المؤرخون (الملوك الخاملون) Rois Fainants .

وفي سنة ٦٨٧ م تمكن أحد الحجاب وهو بيبن دي هوشتال Pépin de Hestal من أن يصبح القائد الحقيقي للممالك الثلاث. وبين سنة ٧١٥ - ٧٤١ خلفه ابنه شارل مارتل الذي ينعته المؤرخون الغربيون بـ (بطل معركة بواتيه Poitiers)، المعروفة في التاريخ الإسلامي بمعركة (بلاط الشهداء) حيث أن العرب المسلمين قفلوا راجعين إلى الأندلس بعد موت قائدهم عبد الرحمن الغافقي، وكانت هذه المعركة في سنة ٧٣٢ م.

٢ - الأسرة الكارولنجية (من سنة ٧٥١ - ٩٨٧) Dynastie Carolingienne

تسعة ملوك ألّفوا هذه الأسرة ، أولهم بيبن لو بريف القصير ابن بيبن دي هرشتال وآخرهم لويس الخامس، وأشهرهم شارلمان.

في سنة ٧٥١ م تمكن بيبن القصير من الإطاحة بـ (شلدريك الثالث) آخر الملوك الميروفنجيين. وإرساء دعائم أسرة الكارولنجيين. وبعد موته تقاسم ابناه كارلومان وشارلمان الحكم حتى تمكن الأخير (شارلمان) من الانفراد بالسلطة، وتوّجه البابا لاون الثالث في روما في سنة ٨٠٠ م إمبراطورًا على الغرب، ولقب بالقائد الزمني[1] للمسيحية وحامي حماها. إلا أنه رغم الانتصارات التي حققها وبشكل خاص في بافاريا والساكس، فإنه هُزم أمام الجيوش العربية الإسلامية في

(١) تقابل السلطة الزمنية للإمبراطور السلطة الروحية المتمثلة في البابا، أو رجال الدين. أي أن الإمبراطور له السلطة الدنيوية والبابا له السلطة الدينية.

الأندلس، حيث خسر معظم قواده، وعلى رأسهم القائد الشهير رولان Roland في معركة روتسفو.

بعد موت شارلمان أصبحت الإمبراطورية الفرنسية مسرحا لخلافات حادة بين أبنائه، الأمر الذي جعلها تتقلص وتنحصر فقط في فرنسا. كما بدأ حكم الأسرة الكارولنجية يتدهور شيئا فشيئا، ولم تعد قادرة على صد هجوم النورمان الذين احتلوا المنطقة التي تسمى اليوم باسمهم (نورماندي Normandie) واستقروا بها نهائيا عام ٩١١ م .

٣ - الأسرة الكابتية (من سنة ٩٨٧ - ١٧٩٢ م) Dynastie Capétienne

٣٣ ملكا ألفوا هذه الأسرة ، أولهم هوج كابي Hugues Capet ، وآخرهم لويس السادس عشر الذي تم إعدامه في عام ١٧٩٢ م.

كان النظام الإقطاعي آخذًا في القوة طيلة القرن التاسع على حساب السلطة الملكية المركزية التي بدت عاجزة تماما عن الوقوف في وجه الغزوات الخارجية: الإسكنديناف النورمان من جهة ، الذين تمكنوا - كما ذكرنا سابقا - من احتلال النورماندي، والمجريون الذين وصلوا بزحفهم إلى باريس نفسها في عام ٨٨٦ م. ولم يتمكن من إيقافهم وإجبارهم على التراجع سوى الكونت أود كابي Euded Capet وقد ظهرت الملكية الفرنسية في أواخر القرن التاسع اسمًا دون مضمون، إذ كانت البلاد منقسمة إلى أكثر من ٣٠٠ كونتية، وكل كونتية مستقلة عن الأخرى بصورة شاملة.

في عام ٩٨٧ م انتخب هوج كابي (أحد أحفاد الكونت أود) ملكا بعد وفاة الملك الكارولنجي لويس الخامس (الخامل) ومع هوج بدأ حكم الأسرة الكابتية ولكن هذه الأسرة بقيت أيضا ضعيفة إزاء سلطات الإقطاع والكنيسة نحو قرنين من الزمان، وكاد ملوكها أن يغيبوا تماما عن التأثير في الأحداث السياسية الكبرى، فلم يتدخل ملك فرنسا لا في الغزوات التي تعرضت لها إنجلترا، ولا في الصراع الناشب بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وبين البابوية، إذ كانت السلطة على الأراضي الفرنسية قد أصبحت في أيدي الإكليروس (رجال الدين) والأسياد الإقطاعيين.

في القرن الثاني عشر بدأت الأسرة الكابتية عملية النهوض بالبلاد، فقد أقنعت إقطاعي البلاد وأسيادها بمبدأ وراثة العرش لأبناء الأسرة وتعيين الوريث في حياة الملك، الأمر الذي لم يكن معمولا به في الإمبراطوريات الأوربية الأخرى. وفضلا عن ذلك، فإن موالاة - بل خضوع - الملوك الكابتيين للكنيسة أكسبهم دعمها المطلق، وهو أمر لم يحظ به لا ملك إنجلترا، ولا إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة. ففي فرنسا قامت الدعوة للحملة الصليبية الأولى على الشرق الإسلامي، وحمل لواءها بابا فرنسي هو أوريانوس الثاني، وبناء عليه أطلق على الصليبيين اسم الفرنجة، أي الفرنسيين. ومن دير كلوني في فرنسا انطلق الإصلاح الجريجوري المترافق مع حركة تأييد الملكية الفرنسية. كما بدأت نهضة فلسفية (أرسطوطالية وأفلاطونية) منقولة من مؤلفات العرب - وأدبية ومعمارية (بناء الكنائس والكاتدرائيات).

عمل الملوك الكابتايون من داخل النظام الإقطاعي، فأصبحوا بسبب موقعهم المتميز (الإقطاع الأقوى) على كامل الأراضي الفرنسية أواخر القرن الثالث عشر، وأخذوا يتدخلون في مختلف الإقطاع والأتباع، ودشن الملك لويس السادس سياسة القضاء والحكم بين الإقطاعيين. وقد تمكن خلفاؤه من المحافظة عليها.

ومن أهم العوامل الأخرى التي بدأت تدفع في اتجاه تقوية نظام الملكية على حساب نظام الإقطاعية :

١ - ولادة المدن وتوسعها على أساس وظيفة تجارية بالدرجة الأولى يمسك بها طبقة بورجوازية وليدة وصاعدة.

٢ - تطور التقنيات الزراعية : حلول الحديد محل الخشب ، استثمار الطاقة الهيدرولوكية، اتباع مناوبة زراعية ثلاثية (كل ثلاث سنوات) .

٣ - ازدياد ديموجرافي : حيث وصل سكان فرنسا من ٨ ملايين نسمة في حوالي عام ١٠٠٠ م إلى عشرين مليونا في عام ١٣٠٠ م.

٤ - انتقال الناس والبضائع داخل البلاد وخارجها، وكذلك الحج إلى روما وإلى القدس وغيرهما من الأماكن المقدسة.

٥ - تجمع التجار في روابط نقابية، وظهور الكمبيالات في معارض منطقة شامبانيا التي كانت مركز الحياة الاقتصادية لأوربا، والواقعة على الطريق التجاري بين الشمال والجنوب.

٦ - الإلغاء التدريجي لنظام الرق الزراعي .

هذه العوامل كلها جاءت في سياق تطور اجتماعي صب في مصلحة الملكية ودفع باتجاه تقوية سلطتها المركزية.

◆ الإشعاع الفرنسي في القرن الثالث عشر ◆

بدأت فرنسا ، ولأول مرة ، تظهر مرهوبة الجانب على مسرح السياسة الأوربية، في أعقاب الانتصار الذي حققه الملك فيليب الثاني أوغست على الإنجليز وعلى التحالف الأوربي في معركة بوفين عام ١٢١٤ التي أمّنت للملك السيطرة على الغرب الفرنسي. وبعدها، جاءت الحملة على حركة الكاتار في الجنوب الفرنسي الذي أصبح خاضعا للسلطة المركزية في الشمال. أما باريس فقد أصبحت إحدى أهم المدن الأوربية، وخاصة للدور الذي قامت به جامعتها في الإشعاع الثقافي الذي طال أوربا قاطبة. فقصدها الفلاسفة والعلماء ورجال الفكر، من أمثال ألبير الكبير ، وتوما الأكويني، ودانس سكوت، وإيكهارت، وغليوم أوكام.. وغيرهم. ومع لويس التاسع أصبح ملك فرنسا حجة روحية كبيرة، خاصة بسبب دوره في الحملات الصليبية، وحكمًا في النزاعات الأوربية.

وعلى صعيد الحكم والإدارة اللذين بدأ إصلاحهما مع فيليب أوغست، فقد استمر هذا الإصلاح ووصل إلى مستوى متقدم مع الملك فيليب لوبل (الجميل) فأصبحت سلطة الملك ممثلة في جميع أرجاء البلاد، وقامت نخبة من المشرعين الذين عملوا واجتهدوا على أساس القانون الروماني!! فأدى عملهم إلى إيجاد مفهوم جديد للدولة، لم يعد الملك بموجبه مجرد (سيد) بين الأسياد أو الإقطاعيين، أو السيد الأول بينهم أو فوقهم، بل أصبح الممثل الحي للقانون والمسئول عنه. ولم يمر هذا التطور في مفهوم الدولة والملك دون حدوث أزمة بين الكنيسة والملك فيليب لوبل ، كما أن هذا التطور كان في أساس أول

اجتماع عقده مجلس الطبقات (النبلاء - الأكليروس، الشعب) بناء على دعوة الملك في عام ١٣٠٢ م. أضف إلى ذلك أن فكرة الدولة أخذت تتوافق مع شعور وطني (ومفهوم للوطن) بدأ ينبلج على حساب العقيدة الخلاصية الدينية الكونية التي كانت طاغية في القرن الثالث عشر.

وستعرف فكرة الدولة، المتوافقة مع مفهوم ومشاعر الوطن نموًا مطردًا في القرون التالية، إلى أن تبلغ أوجها مع القوميات.

*** حرب المائة سنة (١٣٣٧ - ١٤٤٠) :**

جاءت أزمة خلافة العرش عقب وفاة أبناء فيليب لوبل، واعتلاء فيليب السادس العرش، وهو من أسرة فالوا Valois إحدى فروع الأسرة الكابتية، ليوقظ النزاع القديم بين فرنسا وإنجلترا، وقد زاد منه هذه المرة تنافس الدولتين على إقليم الفلاندرا.

شكلت هذه الحرب فترة عصيبة جدًّا بالنسبة إلى فرنسا (يمكن إدراجها في خانة أزمة سياسية واقتصادية واجتماعية عامة ضربت بلدان أوروبا الغربية) والتي كان من أهم مظاهرها الاجتماعية والاقتصادية:

١ - توقف التوسع الزراعي .

٢ - مجاعات وأمراض أدت إلى انتقاص في عدد السكان.

٣ - تقدم التجارة البحرية (البندقية وجنوة) أدَّى إلى توقف أسواق منطقة شامبانيا الفرنسية.

٤ - عدم استقرار أسعار النقد.

٥ - فوضى وثورات قام بها الإقطاعيون والبورجوازيون (والتي كانت آخذة في النمو) وعامة الشعب، وأهم هذه الثورات: تمرد ١٣٥٨ في إيل دوفرانس، انتفاضة باريس التي قادها إتيان مارسيل، وثورتا ١٣٨٢ ، ١٤١٣م.

وقد شملت هذه الفترة تغييرات اجتماعية عميقة. إذ شمل تحرير القن (العبيد العاملون في زراعة الأرض) كامل الأراضي الفرنسية تقريبا. في حين بدأ الأسياد الإقطاعيون يتخلون عن أراضيهم بسبب مصاعبهم المالية، وتتنامي، في موازاة ذلك، طبقة بورجوازية أعطت أشرافا سياسيين (مثل إتيان مارسيل، جاك كور،

وغيرهما) وانبثقت منها طبقة من الفلاحين الميسورين.

وقد استفادت البورجوازية من التجديد الاقتصادي، غداة الحرب، الذي عرف الملك شارل السابع والملك لويس الحادي عشر كيف يطلقانه باتخاذ إجراءات جريئة، مثل: تنظيم تعاونيات مدنية، تنمية صناعة الحرير، إقامة أسواق مدينة ليون، إصلاح النظام النقدي، إجراءات تشجيع التقارب بين طبقتي النبلاء والبورجوازيين. أضف إلى ذلك سياسة هذين الملكين التي تميل إلى تقوية سلطة الملك المركزية مستفيدين من ظهور وحدة وطنية، حول الملك لمواجهة الخطر الإنجليزي، خاصة وأن بطلة وطنية، هي جان دارك كانت قد ظهرت في السنوات الأخيرة من حرب المائة سنة، حاملة مشعل تحرير فرنسا من الإنجليز.

ارتقت جان دارك هذه (١٤١٢ - ١٤٣١) إلى مصاف البطلة الشعبية والقديسة، نظرا إلى شجاعتها واكتسابها صفة رمز الوحدة الوطنية لدى الفرنسيين.

كانت في سن المراهقة حين بدأت مشاعرها الوطنية تضج في جو انقسام الشعب الفرنسي وهو يجابه الإنجليز. وفي غمرة المشاعر الوطنية قادت المقاتلين الفرنسيين في ٨ آيار ١٤٢٩ لفك حصار الجيش الإنجليزي عن مدينة أورليانز الفرنسية ولكنها وقعت عام ١٤٣٠ في أسر قوات دوقية بورغندي الذين باعوها للإنجليز. وواجهت محاكمة صورية انتهت بإعدامها حرقا.

جدير بالذكر أنه في عام ١٩١٩ م ،، غداة الحرب العالمية الأول، قررت الحكومة الفرنسية اعتبار يوم الأحد الثاني من مايو عيدًا قوميًا تكريما لذكرى جان دارك. وكذلك فقد اعتبرتها الكنيسة الكاثوليكية قديسة!!

وبعد حرب المائة سنة، وفي غمرة الإصلاحات، خاصة المتصلة منها بتقوية سلطة الملك أصبح لفرنسا جيش نظامي دائم.

◆ فرنسا في التاريخ الحديث ◆

* فرنسوا الأول وحروب القرن السادس عشر :

بعد عقود طويلة من انتهاء حرب المائة سنة خاضت فرنسا حروبا متتالية، خاصة تلك الحرب التي قادها فرنسوا الأول ضد أسرة هابسبورج النمساوية التي امتدت إمبراطوريتها إلى هولندا وإيطاليا وإسبانيا، والتي أصبح أحد ملوكها، وهو شارل الخامس (شاركان) إمبراطورا على ما سُمِّي آنذاك الإمبراطورية المقدسة.

وفرنسوا الأول (١٤٩٤ - ١٥٤٧) هو ابن شارل دوفالوا المعروف باسم شارل دو أورليانز، وهو كونت أنغوليم وحفيد الملك شارل الخامس. اعتلى فرنسوا العرش (١٥١٥ - ١٥٤٧) بعد وفاة لويس الثاني عشر الذي لم يكن له وريث، وذلك بصفته صهره، وهذا ما جعل مقاطعة بريتانيا فرنسية بشكل نهائي.

تميز فرنسوا بخصائص فروسية، فلقب (بالملك الفارس) وكان يملك ثقافة عامة في الآداب والفنون.

منذ بداية حكمه كان فرنسوا الأول يخضع لتأثير والدته لويز دي سافوا، كذلك لوزيريه الرئيسيين روبرتيه ودييار.

تابع الحروب الإيطالية، وكان حليفا لمدينة البندقية، وأجبر السويسريين على التزام عدم مقاتلة فرنسا وعلى مدها بالجنود مقابل السلام. وقع مع البابا لاون العاشر اتفاقًا سمّي (اتفاق بولونيا) - مدينة في إيطاليا - في ١٨ أغسطس ١٥١٦، يقضي بأن يسمّى الملك الأساقفة والآباء (أي يعينهم)، مما قلّص سلطة البابا عليهم، إضافة إلى اعتراف البابوية بامتيازات كنسية أُعطيت للملك.

في العام نفسه (١٥١٦) تفاوض فرنسوا الأول مع ملك إسبانيا الجديد (شارلكان) حول معاهدة نويون Noyon التي ضمنت فرنسا بموجبها ميلانو مقابل اعترافها بشارلكان ملكا لنابولي. وفي العام نفسه عقد فرنسوا الأول معاهدة مع السلطان العثماني سليمان القانوني تقضي بالحصول على امتيازات فرنسية في السلطنة ذات طابع اقتصادي وثقافي. والمعروف أن هذه الامتيازات، التي توسعت في القرن التاسع عشر، أحد الأسباب الرئيسية في انهيار السلطنة. كذلك

كان لهذه المعاهدة أثرها في حروب فرنسوا وشارلكان. وبعد موت إمبراطور النمسا مكسيميليان، ترشح فرنسوا الأول للمنصب، لكنه لم يستطع منافسة شارلكان ملك إسبانيا الذي كان يملك أموالا طائلة في بنك فيجر (١٥١٩).

أدت مطامح الإمبراطور النمساوي الجديد (الإمبراطورية المقدسة) شارلكان في فرنسا إلى حروب طويلة بينه وبين الملك الفرنسي فرنسوا الأول. وقد حاول هذا الأخير عبثا ، التحالف مع هنري الثامن ملك إنجلترا. في عام ١٥٢١ م هاجم شارلكان ميزيير ولم ينجح في الاستيلاء عليها ، لكنه تمكن في عام ١٥٢٤ م من طرد الفرنسيين من ميلانو بفضل خيانة داخلية تعود بأسبابها إلى عدم اعتراف أسرة بوربون (فرع آخر من الأسرة الكابتية) بأن لويس الثاني عشر قد وضع إرثهم وممتلكاتهم بتصرف فرنسوا الأول.

في عام ١٥٢٥ م هاجم ملك فرنسا إيطاليا ، ولكن حملته لم تنجح وأدت إلى وقوعه في الأسر في بافي (٢٤ فبراير- ١٥٢٥م) فتولت والدته السلطة خلال أسره الذي لم يتحرر منه إلا بعد أن وقع معاهدة مدريد (١٥٢٦) التي تخلى بموجبها عن ميلانو وبورغوني، وتوجت هذه المعاهدة بينه وبين شارلكان بزواجه من أخت الأخير، وكانت زوجته الأولى كلودي فرانس قد توفيت في عام ١٥٢٤م. ورغم ذلك بقي الشقاق حادًا بين الطرفين.

تجددت الحروب بين فرنسوا وشارلكان (١٥٣٦) اضطر خلالها شارلكان إلى توقيع هدنة لمدة عشر سنوات بسبب تفشي الأمراض في جيوشه. ولكن الحرب تجددت في ١٥٤٢ م ، فنزلت قوة فرنسية - عثمانية في نيس (جنوبي فرنسا على البحر المتوسط) وسجل فرنسوا انتصارا كبيرا عام ١٥٤٤ م في إيطاليا انتهت بمعاهدة كريبي أونلديومي (سبتمبر ١٥٤٤) تنازل بموجبها فرنسوا عن السافوا وفلاندر، وتنازل شارلكان عن بورغونيا. أما الأزمة مع هنري الثامن ملك إنجلترا فانتهت في ١٥٤٦ م بمعاهدة أردر.

بالنسبة لسياسة فرنسوا الأول الداخلية فقد تميزت بالتسامح إزاء البروتستانت (وكانت حركتهم الإصلاحية قد بدأت في عهده) وحقق رخاءً اقتصاديا، ومنح في ١٥٣٦ م إتيان تيركه امتيازا لإنشاء معامل حرير في ليون، فكانت إيذانا بانطلاق هذه الصناعة التي راحت في ما بعد تتغذى بحرير لبنان خلال القرن التاسع عشر.

أما النصف الثاني من القرن السادس عشر فقد تميز بالحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت التي بلغت أوج عنفها في مذبحة ليلة القديس بارتسيلي Saint Barthélémy سنة ١٥٧٢ ، والتي ذهب ضحيتها عدة آلاف من البروتستانت بأمر الملك شارل التاسع، وبتحريض من والدته كاترين دو ميتشي. ولم تنته تلك الحروب إلا عام ١٥٩٧ م بعد أن تولى الحكم هنري الرابع (والذي سوف يكون لنا معه لقاء في الصفحات التالية) الذي تزوج من كاترين دو ميتشي. وقد كانت تلك الحروب الدينية أنكى على فرنسا بكثير من الحروب الإيطالية التي سبقتها. إن هذه الحروب كادت أن تقضي على الوحدة التي حققتها فرنسا بعد جهود هائلة، وأورثت فرنسا عللا لا يمكن قياسها بخسائر المعارك وحدها. فقد قامت مدينة على أخرى، وأخذت قرية بتلابيب أخرى، وقامت أسر بعضها على بعض، وأصبحت المصادمات المسلحة والاغتيالات قصة كل يوم. وقد ارتكبت حوادث القتل نتيجة لتعصب ديني، وبعضها طلبًا لثأر خاص، وبعضها الآخر نتيجة نوبة من الإرهاب الأهوج، كما يحدث في كل وقت تفتك فيه جرثومة الجاسوسية الرهيبة بجهاز الدولة السياسي ، وانحرفت المثل العليا لدى أتقياء البروتستانت (الهيجونوت)[1] ولم ينأى بنفسه عن ذلك إلا عقلاء الإنسانيين.

ومن جراء ذلك كله خرجت فرنسا من الحروب الدينية مرهقة ماديا وسياسيا. فقد تداعت سلطة الملوك المطلقة التي تمتع بها ملوك من طراز فرنسوا الأول، وانفصمت الروابط التي كانت تربط أجزاء البلاد، حتى لقد استقل كثير من الأمراء في مناطقهم، فأصبحوا يجمعون الجيوش ويفرضون الضرائب لحسابهم الخاص، وانحلت موارد البلاد الصناعية والزراعية والتجارية، وكان على فرنسا أن تبذل جهودًا مضنية لإصلاح ما اندثر وإعمار ما تخرّب. وقد جاء الملك هنري الرابع ليبدأ العمل.

---

(١) كان يطلق على بروتستانت فرنسا اسم الهيجونوت، وهم المعتنقون مذهب كلفن.

◆ هنري الرابع (مؤسس أسرة البوربون) ◆

(١٥٩٤ - ١٦١٠)

هو هنري الرابع، أو هنري نافار Navarre أول ملوك أسرة البوربون (فرع آخر من الأسرة الكابتية) كان زعيما من زعماء البروتستانت (الهيجونوت)، وآلت إليه ولاية العهد لعرش فرنسا في عام ١٥٨٩ بعد موت أخي الملك شارل التاسع وولي عهد العرش واسمه هنري الثالث؛ ذلك لأن فرع البوربون كان يلي فرع الفالوا في أحقيته للعرش الفرنسي، كما كان هنري نافار متزوجا من مرجريت أخت الملك هنري الثالث من أسرة الفالوا الحاكمة.

ولو كان هنري كاثوليكيا لما كانت هناك أية موانع لولاية العهد، ولكنه كان من أشد أنصار البروتستانتية، بل كان زعيما للبروتستانت، ولذا كان أعضاء الاتحاد الكاثوليكي (الذي كان يسيطر على شئون فرنسا من عام ١٥٧٦ حتى ١٥٩٤م، وتؤيده إسبانيا وتحميه) يفضلون قيام جمهورية في فرنسا على تولية هنري نافار الحكم.

ولما قُتل هنري الثالث (ولي العهد) في عام ١٥٨٩ أصبح لهنري نافار الحق في أن يعتلي عرش فرنسا ، ولكن كان عليه أن يغزو باريس التي كانت تحتلها الجنود الإسبانية لكي يصل إلى العرش الفرنسي. ولم يكن ذلك الغزو أمرًا هينا، لأن هنري نافار كان قد فقد ثقة الكثير من أتباعه البروتستانت؛ بسبب ما تردد عندئذ من شائعات من احتمال تغيير هنري نافار لعقيدته، كما أن أعضاء الحزب الكاثوليكي أرادوا إنقاذ العرش من ملك بروتستانتي فأعلنوا دوق بوربون من ذوي قربى هنري الثالث ملكا على فرنسا.

وبعد أحداث وصراعات عديدة استغرقت الفترة ما بين ١٥٨٩ وحتى ١٥٩٤ أهمها معركة ايفري Ivery (عام ١٥٩٠) وتلقى فيها هنري المساعدة من إليزابيث ملكة إنجلترا وبعض الأمراء الألمان والإيطاليين، وذلك ضد إسبانيا والبابوية وبعض الأمراء الألمان (الحلف الكاثوليكي)، وبعد أن تحول هنري في نهاية الأمر إلى الكاثوليكية لكي يصل إلى عرش فرنسا.. بعد ذلك كله انتهت

الأمور بتغلب هنري نافار على كافة الصعاب التي واجهته، ووصوله إلى عرش فرنسا، بل وأصبح جديرًا بتقدير الشعب الفرنسي له، ليصبح بحق أحد أبطال فرنسا البارزين.

لم يكن معنى ما سبق أن الأمور كانت قد أصبحت سهلة بسرعة على هنري الرابع. فقد كان لزاما عليه أن يتخطى كثيرا من العقبات لتدين له البلاد بالطاعة الكاملة، ولتستقر الأمور بعد أن زعزعتها الحروب الدينية ثلاثين عاما أو يزيد.

أما أخطر المشاكل التي واجهته فكانت تتمثل في موقف أسرة الهابسبورج[١] بفرعيها في النمسا وإسبانيا. فخطر الإسبان لم ينقطع بخروج القوات الإسبانية من باريس، إذ كان لا يزال ماثلا في الشمال على أتم الاستعداد للإساءة إلى مركز الملك والعمل على تقويض عرشه إن أمكن.

كما كان عليه أن يواجه غضب الهيجونوت (البروتستانت) وسخطهم عليه بعد تحوله عن عقيدتهم واعتناقه الكاثوليكية. وكان عليه أن يعمل بكل الوسائل على إرضاء هذه الطائفة التي تزعمها - الكاثوليك - ولم يخف عنه مدى ما وصلت إليه من سلطان وقوة. ثم كان عليه منذ الوهلة الأولى أن يعمل على إعادة تنظيم فرنسا داخليا وإقرار السلام والطمأنينة بها، وذلك بمعالجة جميع مشكلاتها الاجتماعية والاقتصادية التي تراكمت من جراء الحروب الدينية الطويلة. وكان من أهم الأمور التي في أولوياته وأعطاها جل اهتمامه :

*** الخطر الإسباني :**

اقتضت الظروف من هنري الرابع أن يبدأ بالتخلص من الخطر الإسباني ليتمكن من التفرغ لحل المشاكل الأخرى. فبدأ بإعلان الحرب على إسبانيا في يناير ١٥٩٥م واعتمد في ذلك على حماسة الفرنسيين لبغضهم الشديد للإسبان، ولأن مطامع ملك إسبانيا - فيليب الثاني - في عرش فرنسا كانت قد تبينت أثناء الحروب الدينية. كما اعتمد هنري الرابع على ولاء غالبية الشعب الفرنسي وحبه لمخلصه من ذلك الخطر الماثل.

---

(١) ظهر آل هابسبورج في واجهة الأحداث في أوروبا في منتصف القرن الثالث عشر، ولم يختفوا منها إلا عام ١٩١٨. ومرت فترة حكموا فيها أوروبا كلها، باستثناء فرنسا، وكان حكمهم يمتد وصولا إلى أمريكا.

لم يكن الصراع مع إسبانيا بالأمر الهيّن. إذ كانت إسبانيا متحالفة مع البابوية، وتمتلك أبرع فرق المشاة في أوروبا كلها، كما كان إقليم بريتاني مركز قوة الإسبان في فرنسا حيث أقاموا قلعة كروازيل Croisil . ولكن الخطر الرئيسي كان يقع على الحدود الشمالية حيث تستطيع القوات الإسبانية أن تتقدم من ولايات الأراضي المنخفضة الجنوبية (هولندا) التي كانت يومئذ خاضعة لها. هذا بالإضافة إلى أن الإسبان قد استطاعوا أن يضعوا أيديهم على مناطق عديدة في فرنسا مثل بيكارديا وكالبة ومدينة إميان المهمة. حيث كان البروتستانت ناقمين على الملك لتحوله إلى الكاثوليكية.. ومن هنا كان الخطر العظيم.

إلا أن هنري أجرى استعداداته الجيدة، وساعدته الإمدادات التي وصلت إليه من إنجلترا. ومن ثم استطاع أن يحاصر إميان، وأن يهزم القوات الإسبانية لتسقط إميان في يد الملك عام ١٥٩٧ ، وليعقد صلح فرفان Vervins بين فرنسا من ناحية وإسبانيا والبابوية من ناحية أخرى. وبموجب هذا الصلح تنازلت إسبانيا عن كاليه وغيرها من المواقع التي حصلت عليها حديثا في بيكارديا.

والواقع أن أهمية صلح فرفان لا ترجع إلى مواده فقط التي احتوى عليها، وإنما تكمن في حقيقة هامة، وهي أن هنري الرابع قد استطاع أن ينقذ فرنسا من أطماع فيليب الثاني ومشروعاته الضخمة لضمها لحكم إسبانيا. كما تمكن من إقامة ملكية قومية في فرنسا تعمل لصالح البلاد ولتخليصها من كل الأضرار التي نزلت بها نتيجة لتلك الحروب التي عرضت استقلالها للخطر.

*** التسوية الدينية :**

كانت التسوية الدينية جزءًا من حركة واسعة النطاق لإعادة بناء فرنسا السياسي والاجتماعي. وقد اشتهر هنري الرابع بإنجاز هذا العمل الهام، وقُورن عمله في هذا المجال بأعمال نابليون عندما تمكن له السلطان في فرنسا. وكانت تسوية ١٥٩٨ م التي عرفت باسم مرسوم نانت Edit de Nantes أول اعتراف رسمي صريح بالتسامح الديني في تاريخ غرب أوروبا، باعتباره أول اعتراف عام بقيام أكثر من طائفة دينية داخل الدولة الواحدة. وقد جعلت هذه التسوية الشهيرة التسامح الديني جزءًا من القانون الدستوري لفرنسا قبل الاعتراف به في إنجلترا

وألمانيا بوقت طويل.

لقد كانت التسوية الدينية من المسائل الملحة التي واجهت هنري الرابع مؤسس أسرة البوربون في مطلع عهده. فالبروتستانت الذين تحدوا التاج الفرنسي أكثر من ثلاثين عامًا والذين ازدادت أعدادهم، كان في استطاعتهم في أي وقت أن يُنزلوا إلى الميدان جيشا لا يقل عدد رجاله عن خمسة وعشرين ألفا، لهذا لم يكن من اليسير إخضاعهم.

والواقع أنه لم يتم استصدار مرسوم نانت في سهولة ويسر؛ ذلك لأن أغلبية الكاثوليك في فرنسا لم تكن راضية عنه. واشتدت حوله المعارضة في برلمان باريس، وكان طبيعيا أن يعارضه الكاثوليك لأنه - أي المرسوم - كان يقضي بمنح البروتستانت امتيازات دينية وسياسية ومدنية وقضائية. ولكن الملك استطاع بعد مفاوضات مضنية استغرقت وقتا طويلا أن يتوصل إلى تسوية أو (مرسوم نانت) حتى أنه لما اشتدت معارضة الكاثوليك في البرلمان، فإنه - أي الملك - رأى أن يشهد مناقشة المرسوم بنفسه ، فذهب إلى البرلمان بغية التأثير على أعضائه. وقد تم له ما أراد وهو موافقة الكاثوليك - مضطرين - على صدور المرسوم.

ووفقا لمرسوم نانت مُنح كل سيد أو شريف ومن كان صاحب ضياع حق إقامة الشعائر البروتستانتية في نطاق إدارته. وسمح المرسوم للمدن أن تزاول العبادة على المذهب البروتستانتي إذا تبين بأنه يشكل فيها دين الأكثرية السائدة. ولكنه منع إقامة شعائر المذهب البروتستانتي في المدن التي فيها أسقفيات كاثوليكية وفي مدينة باريس والقطاع المحيط بها. ووعد المرسوم البروتستانت بالتمتع بالحقوق المدنية نفسها التي يتمتع بها الكاثوليك وأن يقوموا معهم على قدم المساواة في الوظائف العامة ويسمح لهم بالدخول في الجامعات الكاثوليكية.

وتشكلت وفق هذا المرسوم مجالس مختلطة في عدد معين من محاكم القانون العليا لكل من البروتستانت والكاثوليك. وأعطى المرسوم البروتستانت حق استخدام وسائلهم الخاصة من أجل الدفاع عن أنفسهم، ومنحهم نحوا من مائة مدينة محصنة تُشرف عليها حاميات بروتستانتية بقيادة بروتستانتية.

لقد طمأن مرسوم (نانت) أقلية البروتستانت (الهيجونوت) فأصبحوا أقل عنصر ثوري في الدولة. وتمت صيانة أبرز أقلية في فرنسا عن طريق الحكومة المركزية وليس بالتمنيات المألوفة.

وقد استمر العمل بهذا المرسوم ثلاثين عاما، ثم استبدل بمرسوم آخر يعرف بمرسوم أليس Alais في عام ١٦٢٩ أيام كان ريشيلو رئيسا للوزارة. وقد أدى ذلك إلى ظهور عدد لا بأس به من السياسيين والقادة العسكريين والأشخاص المهمين في تاريخ فرنسا في القرن السابع عشر.

وبالإضافة إلى ذلك المرسوم الشهير أعاد الملك هنري الرابع هيبة السلطة الملكية، بالحد من سلطة الإقطاع، وأدخل إصلاحا ماليا واقتصاديا معتمدا على وزيره الذائع الصيت (سلي) أو صولي Silly .

◆ لويس الثالث عشر ◆

(١٦١٠ - ١٦٤٣)

في ١٤ مايو عام ١٦١٠ م أقدم رافاياك Ravaillac على قتل الملك هنري الرابع، ورافاياك هذا كان كاثوليكيا متعصبا. وبعد مقتل هنري الرابع تولى الحكم لويس الثالث عشر، الذي وُلد في سنة ١٦١٠، وهذا يعني أنه عند وفاة والده - هنري الرابع - كان قاصرًا يحتاج إلى وصاية. وقد قامت بهذه المهمة أمه الإيطالية ماري دوميتشي Marie de Medicis . لكن الملكة وقعت تحت نفوذ أصدقائها في البلاط من الإيطاليين الذين أحضرتهم معها من بلادها، ومنهم كونسيني Concini الذي ارتفعت مكانته في عهدها إلى مرتبة (مارشال) فرنسا.

ونتيجة لنفوذ كونسيني غيرت الملكة الأم سياسة فرنسا تغييرا كليا، فوثقت علاقتها مع إسبانيا الكاثوليكية الهابسبورجية بعد عهد التنافر والعداء بأن زوجت ابنها لويس الثالث عشر من الأميرة آن النمساوية، وزوجت ابنتها إليزابيث من ابن ملك إسبانيا. وقد ترتب على ذلك هياج البروتستانت في فرنسا، بل واعتزال سلي Silly عمله في يناير ١٦١١ م .

لقد نجحت ماري في البداية في تهدئة البروتستانت، الذين احتجوا ضد الزواج الإسباني وضد انزواء سلي البروتستانتي. وذلك باهتمامها بتطبيق مرسوم (نانت). كما أن شخصيتها القوية ظهرت فعلا في توجيه سياسة فرنسا الداخلية، إذ أنها كانت وراء المرسوم الملكي الذي حُلَّ بموجبه مجلس الطبقات سنة ١٦١٥ م وليبقى مشلولا حتى قبل اندلاع الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ .

والواقع أن حل مجلس الطبقات ارتبط بأمرين رئيسيين : الأول هو اصطدام طبقة النبلاء والأكليروس القوية آنذاك في داخل المجلس بقوة البورجوازية التي طالبت بإعادة النظر والتحقيق في الهبات التي قدمتها الملكة للنبلاء. كما طالبوا بإصلاح مفاسد الكنيسة، ووجوب خضوع رجال الدين للمحاكم الزمنية. الأمر الثاني : هو أن مقتل هنري الرابع على يد أحد المتعصبين الكاثوليك تبعه تململ النبلاء والأكليروس في عهد ماري وإثارتهم المتاعب لها. وهكذا فقد أجبروها على دعوة مجلس الطبقات. لكن جلسات المجلس سادتها المصالح المتنازعة والمنافع المتبادلة والمرية. ولم يتمخض عقد المجلس عن إقرار شيء مفيد. وهنا طردت ماري جميع ممثليه، ولتصبح الحكومة تدار بواسطة الملك.

لكن ماري سرعان ما واجهت صعوبات خطيرة من ناحية النبلاء الذين انتهزوا فرصة ضعف الملكية لتحقيق آمالهم الإقطاعية والاستقلال بإماراتهم، وكان يتزعم هؤلاء الأمير كونديه، الذي كان صاحب أطماع في العرش الفرنسي نفسه. ولم يلبث الأمر أن انتهى بإلقاء القبض على كونديه وسجنه في الباستيل في سبتمبر ١٦١٦ م وكادت الحكومة أن تتغلب على أعوانه الذين تحصنوا في بلدة سواسون Soissons لولا ظهور الارتباكات الداخلية في البلاط الملكي نفسه، بسبب رغبة لويس الثالث عشر في الإمساك بمقاليد الحكم ونبذ وصاية أمه ونفوذ صديقها كونسيني. وبعد فترة من الاضطرابات انتهى الأمر بالقبض على كونسيني وقتله عام ١٦٢٠، ليتفرغ الاثنان لخطر آخر كاد يقضي على الملكية.

أما الخطر الجديد فكان يتمثل في أن البروتستانت الذين استاءوا من قبل بسبب التحالف مع إسبانيا، وأثيرت خواطرهم بسبب حوادث الخصام بين الملك وأعوانه من جهة والملكة وأعوانها من جهة أخرى، ثم زادت هواجسهم بسبب قيام حرب الثلاثين عاما واحتدام المناقشات الدينية. هؤلاء البروتستانت قرروا

العمل في تلك الآونة بكل همة ونشاط في تحصين مدنهم المسوَّرة، وكذلك إنشاء حكومات من طراز حكومة جنيف الكلفنية الجمهورية. ثم ألفوا بين مدنهم هذه اتحادًا قويا، فأصبح البروتستانت عبارة عن دولة داخل الدولة.

إن هذه الأعمال الانفصالية لم تلق اهتماما في البداية من الحكومة المركزية لانشغالها بالقضايا التي سبق ذكرها. ولكن بمجرد أن تم الاتفاق بين ماري ولويس الثالث عشر، استطاع الملك أن يتفرغ لمسألة البروتستانت (الهيجونوت). وبعد صراع استمر حتى سنة ١٦٢٢، عقد الملك الصلح مع البروتستانت في أكتوبر ١٦٢٢، وهو الصلح المعروف بمعاهدة مونبلييه Montpellier على أساس أن يمتنع البروتستانت عن عقد المجالس وأن يتم الاستيلاء على مدنهم الحصينة ما عدا مونتبان Montouban ولاروشيل La Rochell.

ومع أن مرسوم نانت تأيَّد مرة أخرى بمقتضى هذا الصلح، فقد كان واضحا أن البروتستانت قد بدأوا يفقدون جانبا كبيرا من قوتهم القديمة.

أما الحدث الأبرز في عهد لويس الثالث عشر، فهو تعيينه للكاردينال القوي (ريشيليو) وزيرا أول له؛ مما أدى إلى اختفاء دور الملكية المطلقة تقريبا، لتُخلي المجال للحكم الوزاري ممثلا في ريشيليو، وتلميذه مازاران من بعده.

وهنا نلتقي مع ريشيليو وقصة صعوده إلى سُدة الوزارة وصراعه مع المشكلات التي واجهته وكفاحه في سبيل إعلاء شأن الملكية، وكبح جماح النبلاء والإقطاع.

◆ الكاردينال ريشيليو Richelieu

(١٦٢٤ - ١٦٤٢)

كان القرن السادس عشر عصر الدولة الإسبانية، كما كان القرن السابع عشر عصر الدولة الفرنسية. وإذا كانت فرنسا قد قُدِّر لها أن تسيطر على أوروبا، فمرد ذلك بدرجة كبيرة يعود إلى أن الكاردينال ريشيليو استطاع أن يسيطر على فرنسا. وقد كرّس حياته لعظمة بلاده، وعندما كان يحتضر قال كلمته المشهورة: (ليس لي من أعداء سوى أعداء فرنسا).

عندما أصبح ريشيليو الوزير الأول عام ١٦٢٤ م كانت فرنسا مقسمة ضعيفة. ولم تغرق أهوال الحروب الدينية (١٥٦٢ - ١٥٨٩) الأمة في فوضى سياسية ومالية فحسب ، ولكنها خلقت أيضا هوة عميقة بين الكاثوليك والبروتستانت وكان مرسوم نانت الذي أصدره هنري الرابع قد منح البروتستانت استقلالا سياسيا معينا فغدا معقلهم في مدينة لاروشيل مجتمعا بروتستانتيا يتمتع بحكم ذاتي. ولكن ريشيليو قرر إنهاء هذا الوضع، لا لأسباب دينية، لأن كاثوليكيته كانت خاضعة للمصالح الوطنية، ولكن أدرك أن التناسق كان لازما إذا أريد لفرنسا أن تكون قوية.

وهكذا حاصر لاروشيل فسقطت عام ١٦٢٨ . وكانت هذه هي الخطوة الأولى في برنامج ريشيليو لجعل فرنسا أعظم دولة في أوروبا.

*** شخصية ريشيليو وأخلاقه :**

كان ريشيليو مهيئًا أفضل تهيئة لتحقيق برامجه الطموحة من أجل فرنسا. فقد كانت له طاقة هائلة للعمل، ثم إن شخصيته المثيرة للرهبة، وتقاطيعه الكالحة المتجهمة، وقامته الفارعة النحيلة، كلها كانت تؤثر في نفس كل من يحتك به تأثيرًا مغناطيسيا، وهذا ما ساعد على ظهور نجمه سريعا.

هو أرمان جان دي بلسيس دي ريشيليو، ولد عام ١٥٨٥ م. ولنا أن نتساءل: كيف يشق إنسان طريقه إلى القمة؟ في تلك الأيام كانت تعينه عراقة أصله. وكانت أم أرمان ابنة محام في برلمان باريس، أما أبوه فهو السنيور دي ريشيليو، المدبر الأكبر لبيت الملك في عهد هنري الرابع. وقد كانت أسرة بواتو العريقة قد ورثت في ذلك الحق في أن توصي الملك باختيار من ترشح لأسقفية لوسون. وقد عيَّن الملك هنري الرابع أرمان بهذه الطريقة في عام ١٦٠٦ ، وقد كان يومها في الحادية والعشرين. وإذ كان أصغر من السن المشترطة للأسقفية بسنتين، فإنه سارع إلى روما، وكذب في أمر سنه، وألقى أمام البابا بولس الخامس خطابا لاتينيا جميلا حمل البابا على أن يسلم له الأسقفية. أما وقد تحقق له (الأمر الواقع)، فقد اعترف ريشيليو بكذبته، وطلب المغفرة. وامتثل البابا وهو يقول: (إن هذا الفتى سيكون محتالا كبيرا)!!.

لم يتخذ ريشيليو وظيفته منصبا شرفيا عاطلا ، بل فرغ لأداء واجباته في اجتهاد ومثابرة، ولكنه وجد الوقت ليتملق كل صاحب نفوذ، ويسخِّر كل صاحب قوة. فلما اختار كهنة بواتو مندوبا لمجلس الطبقات سنة ١٦١٤ كان أرمان رجلهم. وأعجب كل من كان بالمجلس، ولا سيما ماري ديمتشي بوجهه الرزين، وقوامه الفارع الممشوق، وقدرته القانونية على تفهم الموضوعات تفهما واضحا وعرضها عرضا مقنعا.

استطاع ريشيليو أن يصبح وزيرًا لخارجية فرنسا نتيجة تقربه من الملكة ومستشارها الإيطالي كونسيني عام ١٦١٦ . وفي سبيل تدعيم مركزه أخفى أول الأمر اتجاهاته السياسية ، فأظهر استحسانا لسياسة الملكة وكونسيني في تأييد إسبانيا والعمل على مصادقتها، علما بأن سياسته - فيما بعد - عندما أصبح يسيطر على الموقف في فرنسا كانت معاداة إسبانيا ومحاربتها.

اضطر ريشيليو إلى الاستقالة في عام ١٦١٧ ، على أثر مقتل كونسيني، وظل بين عامي ١٦١٨ ، ١٦٢٤ بعيدا عن الاشتراك في السياسة الفرنسية نظرا لقيام الخلافات بين لويس الثالث عشر وأمه، وهي الخلافات التي انتهت بحصول لويس على كل سلطاته وصلاحياته كملك لفرنسا. ولما كان ريشيليو مقربا من الملكة ومستشارها، فقد نفى ريشيليو إلى أفنيون سنة ١٦١٨ لمدة عام، وبدا أن مجرى حياته السياسية قد انتهى. ولكن الجميع - حتى خصومه - اعترفوا بقدراته، ولما تدلت ماري ليلا من إحدى نوافذ قلعتها في بلوا وانضمت إلى قوة من النبلاء المتمردين، استدعى لون الأسقف الشاب وعهد إليه أن يرد الملكة إلى رشدها ويصلح بينها وبين الملك. فأفلح في المهمة، وحصل له لويس على قلنسوة الكردينالية، وعينه في مجلس الدولة. وسرعان ما وضح للعيان تفوق ريشيليو عقلا وإرادة، فأصبح رئيسا للوزراء في أغسطس ١٦٢٤ وهو في التاسعة والثلاثين خلفا لـ Vieuville رئيس الوزراء الذي قبض عليه وسُجن.

ومنذ ذلك التاريخ غدا ريشيليو الحاكم بأمره في فرنسا خلال الثمانية عشر عاما التالية. وقد كان ذلك يعود إلى أنه جمع من الصفات الشخصية ما هيأه لقيادة فرنسا طيلة عهده الوزاري دون منازع. حتى ذُكر عن لويس الثالث عشر قوله في ذلك العهد: (إن السيطرة على كافة ساحات الوغى في أوروبا لأسهل عليَّ من السيطرة على مكتب الملك).

وقد وجد الملك في ريشيليو تلك الصفات التي افتقدها في نفسه: الذكاء الموضوعي، والهدف الواضح، وصلابة الغايات، ومرونة الوسائط. وكان للويس من الحصافة ما جعله يتقبل إرشاد الكاردينال في المهمة الثلاثية (مهمة إخضاع البروتستانت، والنبلاء، وإسبانيا) قال ريشيليو في مذكراته مقدرا له هذه الخلة: (إن قدرة الملك العظيم على أن يسمح بأن يُخْدَم (أي بأن يفوض غيره بالسلطة) ليست أقل صفات الملك العظيم شأنا).

لم يكن لويس الثالث عشر متفقا مع وزيره في جميع الحالات، وكان أحيانا يوبّخه، وكان دائما يغار منه، وقد فكر بين الحين والحين في طرده. ولكن أنّى له أن يرفض رجلا يجعله مطلق السلطة في فرنسا وصاحب الكلمة العليا في أوروبا، ويحصل له من الضرائب أكثر مما كان سلي يجمعه !

*** عمل ريشيليو على تحقيق هدفين رئيسيين هما :**

الأول : اتحاد عناصر الأمة وزيادة نفوذ الملك داخل البلاد وتوطيد سلطانه بالقضاء على كل منافسيه من النبلاء أو البروتستانت أو المجالس الوطنية على السواء، وذلك بوضع نظرية متكاملة في الحكم والإدارة، ووضع خط عام للسياسة الفرنسية لا يقوم على العفوية أو الارتجال.

الثاني : العمل على تفوق فرنسا في أوروبا، وذلك بقهر الهابسبورج، وجعل الملكية الفرنسية مطلقة في الداخل وسيدة مهيمنة في الخارج. ولذا فإنه اعتقد أن مركزية السلطة هي الأساس لتحقيق وحدة فرنسا وعظمتها. وهذا يتضح من إحدى خطبه أمام الملك، حين قال:

.. (عندما شرفتموني جلالتكم بالمشاركة في مجالسكم الاستشارية تبينت بصدق أن الهيجونوت (البروتستانت) يشاركونكم في الحكم وأن النبلاء كانوا يسلكون سلوكا لا يدل على أنهم من رعاياكم. كما أن رؤساء الأقاليم منهم يتصرفون وكأنهم حكام مستقلون وقد أهمل شأن المعاهدات الأجنبية، وتغلبت المصالح الخاصة، كما تبينت أن قدر جلالتكم قد تضاءل بحيث كان الناس لا يشعرون به. وإنني أعاهد جلالتكم على أن أستغل كل جهودي ونفوذي لتحطيم طائفة الهيجونوت، ولأحطّ من كبرياء النبلاء، وأن أسوق كل الرعايا نحو تأدية ما

عليهم من واجبات ، وأن أسترد لفرنسا صيتها بين الشعوب الأجنبية).

وانطلاقا من خطة ريشيليو بدأ بالعمل على تحقيق وحدة فرنسا القومية، فرفض سيادة البابوية على الملوك، واحتفظ للكنيسة الفرنسية بقدر من الاستقلالية عن روما، وأخضع الكنيسة للدولة في الأمور الزمنية، ونفى الأب كوسان الذي تدخل في السياسة بوصفه كاهن الاعتراف الملكي.

وقد طبق مبادئه بكل حزم على الهيجونوت. فقد كان واضحا أمام ريشيليو منذ أول عهده للسلطة أن أهم ما يجب العناية به هو مسألة القضاء على النفوذ السياسي للهيجونوت، ذلك أنهم رغم معاهدة مونبيلييه في عام ١٦٢٢ جعلوا مدينة لاروشيل مدينة صاحبة سيادة من الناحية الفعلية، يشرف عليها تجارها ووزراؤها وقوادها. ومن هذا الميناء الاستراتيجي أرسل التجار تجارتهم إلى مختلف بقاع العالم، وأقلع القراصنة ليقتنصوا أية غنيمة أو مركب ، حتى المراكب الفرنسية، وكان في استطاعة أي عدو لفرنسا أن يدخل البلاد من هذا الميناء إذا أذن الهيجونوت. كذلك انتهك لويس ذاته المعاهدة، فقد وعد بهدم حصن لويس الذي كان خطرا دائما على المدينة، ولكنه بدلا من أن يهدمه زاده تحصينا.

وفي سنة ١٦٢٧ قاد دوق روهان Rohan ثورة قام بها الهيجونوت بمساندة مدينة لاروشيل وتلقى نجدات عسكرية من الإنجليز. لكن ريشيليو قضى على هذه الثورة بعد مرور عام على نشوبها. ونجح في دخول لاروشيل والاستيلاء عليها، وطالب الكاثوليك باستئصال شأفة الهيجونوت. ولكن ريشيليو فاجأ الهيجونوت بشروط صلح رأى فيه الكاثوليك تساهلا شائنا. صحيح أن لاروشيل فقدت استقلال بلديتها وحصونها وأسوارها، ولكن أشخاص سكانها وأملاكهم لم تمس، وسمح من بقي من الجنود الهيجونوت بالرحيل بأسلحتهم، ومنحت حرية العبادة في المدينة للبروتستانت والكاثوليك على السواء. وتلقت مدن بروتستانتية أخرى مثل هذه الشروط بعد استسلامها. ووجب رد الأملاك الكاثوليكية التي انتزعها البروتستانت ولكن القساوسة الذين فقدوا مأواهم مؤقتا عُوِّضوا بإعانة من الدولة بلغت ٢٠٠,٠٠٠ ، وأعفوا من ضريبة (التاي) Taille مثلهم مثل رجال الدين الكاثوليك.

ومُنح عفو عام لجميع من شاركوا في التمرد. وثبت مرسوم نانت الذي أصدره هنري الرابع في كل نصوصه الجوهرية، بمرسوم ريشيليو المسمى (مرسوم العفو) (٢٨ يونيو ١٦٢٩) وفتحت وظائف الجيش والبحرية والحكومة أمام الجميع دون نظر للعقيدة.

◆ الكاردينال والنبلاء ◆

يمثل هذا الحزم الذي تعامل به ريشيليو مع البروتستانت (الهيجونوت)، وبتساهل أقل، تعامل مع النبلاء الذين مازالوا يرون في فرنسا التعدد لا الوحدة. لم تكن الإقطاعية قد ماتت قط، فلقد حاربت من قبل في الحروب الدينية لتهيمن على الحكومة المركزية. وكان كبار النبلاء يحتفظون بقلاعهم المنيعة وقواتهم المسلحة وحروبهم الخاصة وبطاناتهم وموظفيهم القانونيين وبفلاحيهم تحت رحمتهم ويتقاضون الرسوم المعوقة للتجارة التي تخترق أملاكهم.

إن فرنسا لم تكن بعد أمة لأن الإقطاع والتعصب الديني قطعا أوصالها، بل كانت مجموعة مضطربة قلقة من البارونات المغرورين أشبه بالمستقلين، القادرين في أي لحظة على تكدير السلام وتمزيق اقتصاد الدولة. وكان أكثر الأقاليم يحكمه الأدواق أو الكونتات الذين يدعون لأنفسهم حق حكمها مدى الحياة ويورثونها أبناءهم.

ولاح لريشيليو أن البديل العملي الوحيد لهذه الفوضى المضعفة هو تركيز النفوذ والسلطة في الملك. ويخيل إلينا أنه ربما أمكنه أن يجاهد ليوازن هذا التركيز برد قسط من الاستقلال للبلديات. ولكنه لم يستطع رد ما شاع في العصر الوسيط الذي اعتمد على نقابات التجار والصناع والاقتصاد المحلي المحمي؛ ذلك أن الانتقال من سوق المدينة إلى سوق الأمة قوض هذه النقابات والكومونات، وتطلب التشريع المركزي لا المحلي[1]. ولعل العقول التي تجمدت في الأوضاع الحاضرة لا ترى في السلطة الملكية المطلقة التي نشرها ريشليو غير استبدادية رجعية؛ أما في رأي التاريخ، وفي رأي الكثرة الغالبة من

(١) مثل هذا التطور أضعف «حقوق الولايات» في الولايات المتحدة الأمريكية في القرن العشرين.

الفرنسيين في القرن السابع عشر، فإنها كانت تقدما حرر البلاد من الطغيان الإقطاعي إلى الحكم الموحد. لم تكن فرنسا قد نضجت بعد للديمقراطية، فأكثر سكانها مفتقرون إلى الغذاء الطيب والكساء الجيد، أميون، رانت على عقولهم الخرافة وتوحشت نفوسهم بفعل التعصب للعقيدة. وكانت المدن يهيمن عليها رجال الأعمال الذين لا يستطيعون التفكير إلا في كسبهم أو خسارتهم، ولم يكن هؤلاء الرجال، الذين عرقلت الامتيازات الإقطاعية كل خطوة من خطواتهم، ميالين إلى الاتحاد مع صغار النبلاء كما حدث في إنجلترا لإقامة برلمان يقف في وجه السلطة الملكية. ولم تكن (البرلمانات) الفرنسية برلمانات تمثيلية تشريعية، إنما كانت محاكم عليا غذتها السوابق ورسختها، ولم تكن منتخبة من الشعب، وقد غدت قلاعا للمحافظة. وحبذت الطبقات الوسطى، ومهرة الصناع، والفلاحون، سلطة الملك المطلقة بوصفها الحماية الوحيدة التي يرونها ضد سلطة النبلاء المطلقة.

في عام ١٦٢٦ أصدر ريشيليو باسم الملك مرسوما طعن الإقطاع في الصميم، فقد أمر بهدم جميع القلاع إلا ما كان منها على الحدود، وحظر تحصين المساكن الخاصة في المستقبل. وفي نفس العام (بعد أن مات أخوه الأكبر منه سنا في مبارزة) اعتبر المبارزة جريمة كبرى، فلما تبارز مونمورنسي بوتفيل والكونت دي شابيل برغم هذا الأمر أعدمهما. وقد اعترف بأنه (يحس كدرا شديد في روحه) لهذا الإجراء، ولكنه قال لمولاه، (إن الأمر خيار بين القضاء على المبارزات أو على أوامر جلالتكم). وأقسم النبلاء أن ينتقموا من الوزير، وراحوا يتآمرون على إسقاطه.

وقد وجدوا في الملكة الأم حليفا مشوقا إلى الانتقام منه. فهذه الأم التي كانت يوما ما حامية ريشيليو باتت تبغضه حين رأته يعارض سياستها، ولما مرض لويس مرضا خطيرا (يوليو ١٦٣٠) مرضته هي والملكة حتى استعاد بعض صحته، ثم طلبا إليه رأس الكردينال مكافأة لهما. وكررت ماري ديمتشي المطلب بإلحاح شديد وهي في قصرها - قصر اللكسمبورج - ظانة أن ريشيليو بعيد جدًا، ثم اقترحت ميشيل دى مارياك، حامل الأختام، بديلا راغبا في الحلول محله. ولكن ريشيليو الذي أتى عن طريق ممر سري، دخل الحجرة في غير إذن

وواجه الملكة الأم، واعترفت بأنها أخبرت الملك بأن عليه أن يختار بين أن تذهب هي أو هو - أي ريشيليو. وانسحب الملك المرهق، وانطلق راكبا إلى كوخ صيده في فرساي. وتقاطرت الحاشية حول ماري في اغتباط بفوزها المنتظر. ولكن لويس أرسل في طلب ريشيليو، وثبته رئيسا للوزارة، وأكد له مساندة الملك له، ووقع أمرا بالقبض على مارياك. وأشاع (يوم المغفلين) هذا (١٠ نوفمبر ١٦٣٠) الفوضى والحنق في صفوف النبلاء المتآمرين. وسمح لمارياك بالبقاء حيا، ولكن أخاه الذي كان مرشالا لفرنسا اتهم بعد ذلك بالاختلاس وأعدم في شيء من العجلة (١٦٣٢). وأمر لويس أمه أن تعتكف في قصرها الريفي بمولان وأن تنفض يدها من السياسة. ولكنها هربت إلى فلاندر بدلا من ذلك (١٦٣١)، وجمعت لها حاشية في منفاها ببروكسل، وراحت تعمل لإسقاط ريشليو. ولم تقع عيناها قط على الملك بعد ذلك.

أما ولدها الثاني ، (مسيو) جاستون، دوق أورليان، فقد حشد جيشا في اللورين وقاده في تمرد صريح على أخيه (١٦٣٢). وانضم إليه عدة نبلاء، ومنهم أرفع شريف في فرنسا - هنري ، دوق مونمورنسي، وحاكم لانجدوك. وانضوى الآلاف من الطبقة الأرستقراطية تحت لواء الثورة. وعلى مقربة من كاستلنوداري (أول سبتمبر) اشتبك مونمورنسي، البالغ من العمر سبعة وثلاثين ربيعا، مع القوات التي جردها عليه ريشيليو. وقاتل حتى أسقطه سبعة عشر جرحا، وتحطم جيشه هو وجاستون تحت وطأة الهجوم، وكان جيشا غنيا في الألقاب فقيرا في النظام، وأسر مونمورنسي. واستسلم جاستون، ودل على شركائه ثمنا للعفو عنه. وأمر لويس برلمان تولوز بأن يحاكم مونمورنسي بتهمة الخيانة؛ وكان الحكم هو الإعدام. وهكذا مات آخر أدواق مونمورنسي دون خوف أو تذمر وهو يقول: (إنني أعد هذا الأمر الذي أصدره قضاء الملك أمرا أصدرته رحمة الله). وأدان معظم فرنسا الكردينال والملك لهذه الصرامة المجردة من الشعور، وأجاب لويس: (ما أنا بملك لو كان لي شعور الأشخاص العاديين). أما ريشيليو فدافع عن الإعدام بأنه إنذار ضروري للنبلاء بأنهم هم أيضا خاضعون للقوانين قائلا: (لا شيء يدعم القوانين كعقاب الأشخاص الذين تعظم رتبتهم عظم جريمتهم).

بقيت عقبتان أخريان في طريق سياسة ريشيليو، هما ولاة الأقاليم والبرلمانات،

لقد ساء الكردينال فقدان إيراد الأقاليم بسبب ما شاب سلوك الولاة النبلاء والقضاة من البورجوازيين أو صغار النبلاء من فساد ونقص في الكفاية، لذلك أوفد الكردينال لكل قسم (محافظين) للإشراف على إدارة المالية والقضاء وتنفيذ القوانين. واتخذ هؤلاء الموظفون الملكيون مكانا أعلى من الموظفين المحليين كائنة ما كانت رتبتهم، واضمحل استقلال الأقاليم الذاتي، وانتعشت الكفاية وزادت حصيلة الضرائب. ونظام المحافظين هذا الذي استبق هنري رابع إليه بقدر ما، والذي عطله النبلاء أثناء ثورتي الفروند، والذي دعمه لويس الرابع عشر، ثم اقتبسه نابليون - هذا النظام أصبح من الملامح البارزة للبيروقراطية المحكومة مركزيا والتي أدارت منذ الآن قوانين فرنسا.

أما برلمان باريس فقد خيل إليه أن الفرصة في ظل ملكية ضعيفة مواتية لتوسيع وظائفه من تسجيل القوانين وتفسيرها إلى دور المجلس الاستشاري للملك. ولكن ريشيليو ما كان ليطيق مثل هذه المنافسة لمجلس دولته، فدعا لويس زعماء البرلمان، على الأرجح بتحريض منه، مستعملا عباراته الحادة، وقال لهم : (لقد عينتم لا لشيء إلا لتقضوا بين زيد وعمرو من الناس، فإذا تماديتم فيما أنتم فيه فإني مقلم أظافركم تقليما حادا تأسفون له). وأذعن برلمان باريس، وحذت برلمانات الأقاليم حذوه. واختزلت وظائفهم حتى التقليدي منها، فأقام ريشيليو (لجانا فوق العادة) لتنظر في الدعاوى الخاصة. وأصبحت فرنسا دولة بوليسية، وانتشر جواسيس الكردينال في كل مكان حتى في الصالونات، وغدت (الأوامر المختومة) أداة مألوفة في الحكم. وهكذا أصبح ريشيليو الآن في حقيقة الأمر وواقعه ملك فرنسا.

*** الكردينال صاحب الكلمة العليا :**

أما وقد ملكت يداه هذه السلطة المركزة، فقد فعل كل شيء من أجل فرنسا، ولم يفعل إلا القليل من أجل الشعب. كان يرى فرنسا دولة لا مجموعة من الأفراد الأحياء؛ إنه لم ينظر إلى الرجل العادي نظرة مثالية، ولعله رأى (العذوبة واللياقة) في أن يموت أمثال هؤلاء الرجال في سبيل وطنهم، فهو راغب في التضحية بهم ليؤمن وطنه المستقبل من تطويق الهابسبورج له. وكان يشقى

ساعات الليل الطويلة في تصريف شئون الدولة، ولكن همه كان أكثر الوقت سياستها الخارجية. لم يكن لديه متسع من الوقت لتحسين الاقتصاد، إلا أن يكون لتصيد المتهربين من الضرائب وجلب الدخل و(الأنباء) لباريس بقدر أقل من التسرب وهي في الطريق . وفي عام ١٦٢٧ نظم البريد العام .

وكانت الضرائب ما زال يجمعها رجال المال الذين (أقطعوا) هذه الضرائب، وكانوا يقتضون المثلين، وأحيانا ثلاثة أمثال المبلغ الذي يؤدونه للحكومة. وقد أعفى النبلاء ورجال الدين من الضرائب الهامة؛ ووجد مهرة رجال الأعمال وثروات الموظفين المختزنة السبيل للتهرب من الجباة أو استرضائهم، أما المدن فكانت تدفع مبلغ صغيرا لتنجو من ضريبة الرءوس؛ ووقعت وطأة الضرائب على طبقة الفلاحين التي فصدها ريشيليو حتى الفاقة ليجعل من فرنسا أقوى دولة في العالم المسيحي. وكان كهنري الرابع يؤثر أن يقهر أعداءه بالمال لا بالدم، وكثير من المعاهدات التي خاض بها الحرب تضمن إعانات مالية للحلفاء ورشا للأعداء المحتملين. وكان أحيانا يقرض الخزانة من جيبه الخاص إذ أعوزه تدبير المال، ومرة استأجر أحد المشتغلين بالكيمياء القديمة ليصنع له الذهب. وتضافر نظام الضرائب، والسخرة الحكومية على الطرق، مع الجفاف والمجاعة والطاعون وغارات الجنود، لتدفع الفلاحين إلى حال من اليأس تقرب من الانتحار، حتى لقد قتل عدد منهم أسرهم وأنفسهم، وقتلت الأمهات الجائعات أطفالهن وأكلتهن (١٦٣٩) . وفي عام ١٦٣٤ ، في رواية ربما بولغ فيها، كان ربع سكان باريس يتسولون. وكان الفقراء ينتفضون في فترات دورية وأوقات متفرقة انتفاضات قمعت في غير رحمة.

واستخدم ريشيليو الضرائب لبناء الجيوش والأسطول؛ ذلك أن الحق في رأيه لا يجد أذنا صاغية إلا إذا تكلم بالمدفع. ولما اشترى منصب الأميرال الأكبر، قام بواجباته بعزيمة ماضية. فأصلح الموانئ وحصنها، وأنشأ الترسانات ومخازن الذخيرة في الثغور، وبنى خمسا وثمانين سفينة، وأسس مدارس لمرشدي السفن. ودرب أفواج الجنود البحريين. وجند مائة فوج من المشاة، وثلاثمائة جندي من الخيالة، ورد النظام إلى الجيش. ولم يخفق إلا في جهوده لإقصاء مومسات الجيش. وبفضل هذه القوات الحربية التي بث فيها الحياة من جديد تصدى لفوضى العلاقات الخارجية التي خلفتها وصاية ماري دميتشي، وعاد إلى سياسة

هنري الرابع، ووجه كل قواته لهدف واحد - هو تحرير فرنسا من نطاق القوة الهابسبورجية في الأراضي المنخفضة والنمسا وإيطاليا وإسبانيا.

كانت ماري قد ألفت بين فرنسا وإسبانيا - أي أنها في رأي ريشيليو خضعت للعدو، وأقصت أولئك الذين اعتمد هنري الرابع على صداقتهم وهم الإنجليز، والهولنديون، وبروتستانت ألمانيا. ورأى ريشيليو بعين القائد الاستراتيجية اللماحة أن الممرات الفاتيلية التي تربط النمسا بإيطاليا الإسبانية هي المفتاح لقوة إسبانيا والإمبراطورية الموحدة في تبادل المؤمن والجنود. وكافح اثنى عشر عاما للظفر بهذه الممرات، وقد صرفته عن هذا الهدف وهزمته حروبه مع بروتستانت فرنسا والنبلاء، ولكنه استرد بالدبلوماسية أكثر كثيرا مما خسر في الحرب. وأوفد (الأب جوزف) في كل مكان في بعثات دبلوماسية شائكة فأداها بمهارة، وبدأت فرنسا تزاوج بين الراهب الرمادي العباءة الذي لقبته (صاحب القداسة الرمادي)، وبين ريشيليو ذي العباءة الحمراء الذي لقبته (صاحب القداسة الأحمر). أما وقد ظفر الكردينال بهذا المعين، فإنه أقسم أنه (مثبت للعالم أن عصر إسبانيا في سبيله للزوال، وأن عصر فرنسا قد أقبل).

في عام ١٦٢٩ بدا أن الصراع الطويل في ألمانيا أوشك أن ينتهي بنصر الإمبراطور الهابسبورجي الكاثوليكي نصرا مؤزرا على الأمراء البروتستانت. ولكن ريشيليو قلب الأوضاع قلبا كاملا بالمال. ذلك أنه أبرم مع جوستاف أدولف (١٦٣١) معاهدة نصت على أن يغزو ملك السويد المغوار ألمانيا وينقذ الدويلات البروتستانتية، يعينه على ذلك مليون من الجنيهات تدفعها له فرنسا كل عام. وندد أنصار السلطة البابوية المطلقة في فرنسا بالوزير خائنا لدينه، أما هو فكان رده أن الحياد خيانة لفرنسا. فلما مات جوستاف وهو ظافر في لتزن (١٦٣٢) واستسلم معظم الأمراء الألمان للإمبراطور، دخل ريشيليو الحرب فعلا. وزاد الجيوش الفرنسية من ١٢,٠٠٠ في عام ١٦٢١ إلى ١٥٠,٠٠٠ في عام ١٦٣٨ وأعان الثورة التي قام بها القطالونيون في إسبانيا، وبفضل دبلوماسيته سيطر على كوبلنتز، وكولمار، ومانهايم؛ وبازل؛ واستولى جنوده على اللورين وشقوا طريقهم عنوة مخترقين سافوا إلى ميلان قلب القوة الإسبانية في شمال إيطاليا.

ثم دار الحظ دورته وبدا أن كل هذه الانتصارات لا معنى لها. ففي يوليو

وأغسطس ١٦٣٦ عبرت قوة كبيرة من الجيوش الإسبانية والإمبراطورية الأراضي المنخفضة ودخلت فرنسا، واستولت على اكس - لا - شابل (آخن) وكوربي، وزحفت على أميان، واجتاحت أودية السوم والواز الخضراء. وكانت جيوش ريشيليو بعيدة جدًّا، وأصبح الطريق إلى باريس مفتوحا عديم الدفاع أمام العدو. واغتبطت الملكة الأم في بروكسل، والملكة في سان جرمان، وحزبها الموالي لإسبانيا في فرنسا، وراحوا يعدون الأيام لسقوط الكردينال المنتظر. وازدحمت الجماهير الغاضبة في باريس في الشوارع منادية بموته - ولكن حين طلع عليهم بادي الهدوء فوق جواده المهيب، لم يجرؤ أحد منهم على أن يمسه، وابتهل الكثيرون لله أن يمنحه القوة لإنقاذ فرنسا. وهنا لم تتضح شجاعته فحسب، بل بعد نظره واجتهاده؛ ذلك أنه كان قد نظم منذ أمد بعيد مواطني باريس في ميليشيا احتياطية، واختزن السلاح والمؤونة لهم، ومن ثم فقد نفخ الآن فيهم روح الحماسة فاستجابوا لندائه، وأقر برلمان باريس والمجالس البلدية والنقابات الحرفية المال اللزوم، ولم تمض أيام حتى كان جيش جديد في طريقه إلى القتال، فحاصر كوربى. وتلكأ جاستون أورليان المتولي قيادة الجيش، فحضر ريشيليو، وتولى القيادة، وأمر بالهجوم. وفي ١٤ نوفمبر سقطت كوربى، وتقهقرت الجيوش الهابسبورجية إلى الأراضي المنخفضة.

وفي عام ١٦٣٨ استولى برنارد، أمير ساكسي - فيمار الذي قاد جيشا ألمانيا يموله ريشيليو، على ألزاس، فلما مات بعد سنة أوصى بها لفرنسا، وأصبحت الرأس ولوثرينجن الألزاس واللورين، وبدأت تتحول فرنسية. وفي عام ١٦٤٠ سقطت أراس. وفي عام ١٦٤٢ استولت قوة يقودها الملك والكردينال على برنيان، واقتطع إقليم روسيون المحيط بها من إسبانيا. وهكذا بدا ريشيليو الآن في كل مكان المنظم للنصر.

وهكذا حقق ريشيليو عظمة فرنسا في أوروبا، كما حقق لها الوحدة القومية والحكم المركزي لحساب السلطة الملكية الملطقة، لكنه ترك فرنسا أفقر مما كانت عليه من قبل، مما سيقدم للفلاحين فيما بعد ذريعة للقيام بالثورات والانتفاضات التي لم تهدأ طوال قرن من الزمان. وفي تقييمه لدور ريشيليو يقول ديورانت: (ولكن التاريخ يذكر فيه بحق وقبل كل شيء الرجل الذي حرر فرنسا

من تلك السيطرة الإسبانية التي نجمت عن الحروب الدينية والتي جعلت من فرنسا - بمقتضى الحلف - دولة تتلقى من إسبانيا معاشا. بل تكاد تكون تابعة لها. إنه حقق ما كان فرانسوا الأول وهنري الرابع يصبوان طويلا إليه، وما أخفقا في تحقيقه. فقد كسر النطاق الخانق الذي طوقت به دولتا الهابسبورج فرنسا، وأنقذ البروتستانتية الألمانية باعتبارها حليف فرنسا الكاثوليكي. ويسر لمازاران أن يصوغ صلح وستفاليا البناء. أما لفرنسا ذاتها فقد حقق وحدة وقوة على حساب دكتاتورية واستبدادية ملكية ولدت الثورة حين حان وقتها. وإذا كان أول واجبات رجل الدولة أن يجعل شعبه سعيدا حرًّا، فإن ريشيليو كان شديد القصور في تحقيق هذا الهدف. وقد أدانه الكاردينال ريتز وهو قاضٍ ذكي ولكنه لم يتجرد من التحامل - لأنه أرسى أشنع وأخطر طغيان استرق دولة ربما في التاريخ كله. ولو سئل ريشيليو عن هذا لربما أجاب بأن على رجل الدولة أن يأخذ في الاعتبار سعادة وحرية الأجيال القادمة لا جيله فحسب. وأن عليه أن يقوي وطنه ليحميه من الغزو أو السيطرة الأجنبية، وأن له في سبيل هذا الهدف أن يُضحي بحق جيل حاضر من أجل أمن الأجيال التالية. وبهذا المعنى رأى فيه أوليفاريس - غريم ريشيليو الأسباني (أقدر وزير في العالم المسيحي في الألف سنة الأخيرة).

*** نهاية ريشيليو :**

قلما كان يشعر ريشيليو بالعافية، فقد عرضته الحمى التي أصيب بها لصداع متكرر كان أحيانا يلازمه أياما بطولها، ولعل جهازه العصبي كان ضعيفا بالوراثة، أو مضرورا بالخلقة، فقد كانت إحدى شقيقاته ضعيفة العقل، وأحد إخوته مجنونا بعض الوقت ، وأرجفت شائعات القصر أن الكاردينال ذاته تعتريه نوبات من الصرع وهلوسة جنونية. وكان يعاني من البواسير والبثور، ومرض المثانة. وكانت أزماته السياسية تزداد تعقدا أيضا بحصر البول كما كان الشأن مع نابليون. وقد حملته علته على التفكير غير مرة في الاعتزال، ولكنه وهو حبيس إرادته كان يأخذ الزمام ثانية ويواصل النضال.

وبعد إحدى معاركه التي حقق فيها النصر على أعدائه، أصابته آلام مبرحة بسبب الناسور الشرجي، اضطر معها أن ينتقل إلى باريس على محفة حملها أربعة

وعشرون رجلا، واتسعت لسرير الرجل المحتضر، ومائدة، وكرسي، وسكرتير يملي عليه أوامر للجيش ورسائل دبلوماسية. واستغرقت مسيرة الموت هذه ستة أسابيع. وبعد يوم من الغيبوبة مات في ٤ ديسمبر ١٦٤٢، وهو في السابعة والخمسين، بعد أن أوصى الملك أن يتخذ جول مازاران خلفا له.

تراث ريشيليو الفكري:

ترك ريشيليو ١٠ مجلدات من المذكرات، سجل فيها أعمال الدولة كلها كأنها ليست أعماله بل أعمال الملك. وكان في سنواته الأخيرة قد أهدى لويس (ميثاقا سياسيا) (يصلح بعد موتي لإدارة مملكتك وسياستها..) هنا، وسط بعض الملاحظات التافهة تجد قواعد بليغة للحكم، صيغت في أسلوب يضارع أي أسلوب في زمانه.

إنه ينصح الملك بأن يجتنب الحرب، باعتبارها شيئا لا يصلح له جلالته بطبعه. (إن مصالحة عشرة أعداء أجدى وأدعى للفخر من القضاء على عدو واحد).

ثم أسر إليه أن الفرنسيين قوم لم يخلقوا للحرب، ففي بدايتها يكونون الشجاعة كلها والحماسة كلها، ولكن يعوزهم الصبر ورباطة الجأش انتظارا للحظة المواتية، وبمضي الوقت (يفقدون الاهتمام ويغدون أضعف حتى من النساء).

ويجب أن يكون للملك، كالقائد، شجاعة الرجال القادرة على مقاومة الميول العاطفية، وعليه ألا يعطي النساء كلمة في الحكومة، لأنهن يتبعن نزواتهن وأهواءهن أكثر مما يستمعن لصوت العقل. على أن الفكر في المرأة لا يناسبها، لأني لم أر في حياتي امرأة عالمة لم يفسدها علمها.. والنساء لا يستطعن كتمان السر، و(الكتمان روح السياسة) ورجل الدولة الحصيف قليل الكلام كثير الإصغاء.

وهو يحذر أن يسيء بكلمة غافلة، وهو لا يتكلم بشر عن أحد إلا إذا اقتضى ذلك صالح الدولة. ومن واجب الملك أن يكون لديه معلومات عامة عن تاريخ جميع الدول ونظامها، ولا سيما دولته.

ثم يرجو المؤلف شيئا من التفهم لوزارته وخلقه.. (إن عظماء الرجال الذين يعينون لحكم الدول أشبه بالمحكوم عليهم بالتعذيب، مع فارق واحد، هو أن هؤلاء يتلقون العذاب على سيئاتهم، أما أولئك (أي الوزراء) فعلى حسناتهم).

◆ جول مازاران Jules Mazarin

◆ القائد والمفكر الداهية ◆

«ذلك السياسي البارع لم ينتقم من أحد، بل غفر لجميع أعدائه لأنه انتصر في الجولات كلها..»

إن المرء ليقف مندهشا عند تتبع حياة هذا الرجل، ومدى النجاح الذي حققه في بلد غير بلده غريب عنه، تحاصره المؤامرات والدسائس والأحقاد. ولكنه رغم ذلك استطاع أن يصل إلى أعلى المراتب ، وأن يكون الحاكم المطلق في فرنسا، ومصرِّف شئونها لمدة طويلة. فقد شاء له القدر أن يوجد في النصف الأول من القرن السادس عشر، حيث كانت فرنسا، وبصفة خاصة باريس، مسرحا لدسائس النبلاء ومؤامراتهم، وكان كل نبيل يحاول الحصول على أكبر قدر من الألقاب.

على أن الكاردينال مازاران استطاع أن يوقف هذه الأعمال الدنيئة، ونجح في أن يحكم فرنسا وحده. فقد استطاع بقوة شخصيته، وذكائه المتوقد أن ينقذ البلاد من خراب مؤكد، كما استطاع بحنكة سياسية عجز البلاط عن إدراكها أن يترك بين يدي لويس الرابع عشر دولة تفرض على الدول الأخرى احترامها، وتخشاها أوروبا بأسرها.

فما قصة هذا الرجل، ومن أين جاء وكيف وصل إلى ما وصل إليه.. هذا ما سنعرفه في الصفحات التالية.

* المولد والنشأة :

لم تكن فرنسا قد توحَّدت بعد يوم ارتقى لويس الرابع عشر العرش، وهو لا يجاوز الخامسة سنة ١٦٤٣ ، وكان على كاردينال ثانٍ أن يتم العمل الذي بدأه سلفه ريشيليو، ذلك هو جول مازاران Jules Mazarin والذي كان يسمى في إيطاليا جوليو مازارينو Jiulio Mazarino .

ولد مازاران في إيطاليا عام ١٦٠٢ بإقليم أبرتزوا Abrutzzo بالقرب من روما من أسرة متواضعة إذ كان والده بياترو مازارينو المولود في عام ١٥٧٦ م في

باليرما كان قد انتقل مع أحد أعمامه إلى روما حيث دخل في حاشية النبيل كولونا Colonna الذي زوّجه من إحدى فتيات العائلة، وعهد إليه بإدارة العديد من المناطق التي كان يملكها.

أمضى مازاران طفولته، وبعضا من سنوات مراهقته في حي Trevi في قلب المدينة البابوية. وقد بدأ دروسه في روما في سن السابعة في المدرسة الرومانية (معقل اليسوعيين). وقد أظهر خلال دراسته طاقات كبيرة تمثلت في لعب أدوار متنوعة في عدة مسرحيات دينية، وبرهن خلال دراسته على قدرة عقلية متفوقة في النقاش. وقد ربطت بينه وبين أحد شبان أسرة كولونا صداقة جعلته يذهب معه إلى إسبانيا والالتحاق بجامعة القلعة Alcala . وستفتح له إقامته في إسبانيا الباب أمام الوظيفة التي سيحاول من خلالها مساعدة عائلته وانتشالها من الفقر الذي كانت فيه، حيث يلتحق في إسبانيا بجيش البابا.

وإلى جانب الدرس والعمل كان مازاران يكرس جزءا كبيرا من وقته للعب واللهو وبقى على هذه الحال حتى الخامسة والعشرين، ثم عاد إلى روما عام ١٦٢٨ حيث حصل على درجة الدكتوراه في القانون. ولما كان يحظى بحماية آل كولونا فقد عهدوا إليه بعدة مهام ذات طابع دبلوماسي، وسرعان ما لفت إليه الأنظار كشاب بارع حكيم.

هذا التبدل الوظيفي في حياته سيشكل منعطفا جوهريا في مسيرته السياسية. فبسبب النجاح في عمله الجديد، وبفضل علاقاته الجديدة مع أسرة باربريني ذات النفوذ سيرتقي مازاران بسرعة في وظيفته ليصبح مقررا للبعثة البابوية في مدينة أفينيون الفرنسية، قبل أن يتم تعيينه نائبا لرئيسها خلال فترة وجيزة من الزمن، ومن ثم كان سفيرا للحبر الأعظم في باريس. وقد ساعدته وظيفته الجديدة في فرنسا على تحسين وضع العائلة المادي في بداية الأمر، ومن ثم على ارتقائها الاجتماعي عندما سيبدأ في إحراز بعض النجاح في المهمة التي كلّف بها هناك.

وقد كانت مهمة مازاران صعبة وشاقة إذ كانت تقضي بإقناع فرنسا – أو بالأحرى الكاردينال ريشيليو رئيس وزارة لويس الثالث عشر آنذاك، وسيد السياسة الفرنسية – بفك الحصار عن حصن كازال Casal الإيطالي، وتوقيع هدنة لوقف القتال بين فرنسا وإيطاليا.

*** لقاء مازاران وريشيليو :**

قبل لقائه بريشيليو كان مازاران قد التقى بأمير البياموت الذي قال له عن ريشيليو : (لقد تعاملت كثيرا مع الكاردينال، وهو فعلا رجل عظيم لكنه يريد البرهان دائما على أن القرارات الهامة تتعلق به وحده).

وقد اعترف مازاران، فيما بعد، بالأثر الكبير الذي سيتركه فيه هذا اللقاء مع ريشيليو في ٢٩ يناير ١٦٣٠ حيث قال: (لقد ارتبطت بالكاردينال بصورة عفوية حتى قبل أن أتعرف على صفاته الكبرى من خلال التجربة).

كان الكاردينال ريشيليو في الخامسة والأربعين من عمره آنذاك ويدير سياسة فرنسا منذ خمس سنوات، في حين لم يكن مازاران المجهول على المستوى الدبلوماسي، قد بلغ بعد الثامنة والعشرين، عندما جاء يعرض عليه الهدنة في إيطاليا.

وكانت المفاجأة في أن ريشيليو الذي كان يبذل قصارى جهده لتحقيق انتصار عسكري على خصومه في إيطاليا، استقبل هذا الدبلوماسي الشاب، واستبقاه عنده لساعات عديدة، وقَبِلَ بتقديم تنازلات إليه.

في الواقع، إن مازاران الذي كان يدرك الوضع الصعب الذي يقف فيه ريشيليو من الناحية العسكرية، أوحى بصورة ذكية جدا بأن قرار الهدنة كان صادرًا عن الكاردينال لوحده وبمبادرة خاصة منه. وكان ريشيليو ممتنا لهذا الموقف من جانب مازاران، الذي عرف، ليس فقط كيف يعيد السلام إلى فرنسا، وإنما أيضا كيف يجنبها هزيمة عسكرية كبرى في إيطاليا.

ابتداء من هذا التاريخ ستنشأ علاقة وثيقة بين الرجلين، فمازاران كان معجبا بشخصية الكاردينال وعظمته، وهذا الأخير كان معجبا بحنكة مازاران ومهارته. ولذا فإن الكاردينال سيوجه أوامره إلى سفير فرنسا في إيطاليا ليتدخل لدى الحبر الأعظم من أجل تعيين مازاران سفيرا بابويا في باريس. وسيقدم مازاران - على سبيل العرفان بالجميل - لريشيليو الكثير من الهدايا الفخمة، ولا سيما اللوحات الفنية المشهورة، وريشيليو الذي كان يقدر هذه الهدايا كثيرا سيستقبل مازاران بكثير من اللطف والمودة، وكان يدعوه كثيرا إلى تناول العشاء على مائدته.

وقد كتب مازاران عن هذه العلاقة قائلا: (لم يكن الكاردينال يقيم احتفالا في منزله إلا ويدعوني إليه، وغالبا ما كان يلح عليّ كثيرا كي أصطحبه إلى احتفالات الملك. وفي مقابلاتنا الخاصة كان يعاملني بقدر كبير من العفوية، في حين يظهر لي احتراما كبيرا أمام الآخرين).

بعد نجاح مازاران في إحلال السلام بين إيطاليا وفرنسا سيعود لزيارة أهله في روما سنة ١٦٣٦ . وفي روما سيحاول من جديد، بواسطة آل باربريني، العودة مرة أخرى إلى باريس كممثل للحبر الأعظم، أو حتى إلى لندن أو بولونيا. إلا أن البابا يرفض طلبه، وباءت كل محاولاته بالفشل على هذا الصعيد. وقد يكون سبب هذا الموقف المتشدد من جانب البابا يعود إلى قناعته بأن مازارن كان يخدم فرنسا في إيطاليا أكثر مما كان يولي قضايا الكرسي الرسولي، الذي يمثله، الاهتمام المطلوب.

وبعد أن فقد مازاران الأمل بإمكانية إيجاد مخرج لوضعه الصعب في روما، والحصول على منصب السفير الذي كان يطمع إليه مرة ثانية، قرر العودة إلى فرنسا والالتحاق هناك بخدمة ريشيليو.

ولم تخب آماله هذه المرة، فالكاردينال سيستقبله بحفاوة بالغة، وسيمنحه الجنسية الفرنسية، فاتحا أمامه بهذا الشكل باب السلطة على مصراعيه.

*** مازاران خلفا لريشيليو :**

كان ريشيليو الذي كان قد اختبر طاقات مازاران ومواهبه، يدرك بحدسه العميق أن باستطاعته الاعتماد على هذا الشاب، صاحب الذهن الحيوي والجريء، ليساعده، وهو المتعب، على حل المشاكل الكثيرة التي تواجهها فرنسا على الصعيدين الداخلي والخارجي.

ولذا فإنه سينصح الملك لويس الثالث عشر باستخدام مازاران، وتعيينه بصفة وزير دولة في مجلسه، ثم سيقدمه للملكة آن - دوتريش ، التي سيترابط معها مازاران بعلاقة حميمة جدا سيحتار المؤرخون في تفسيرها لاحقا. فالملكة الإسبانية الأصل، كانت متزوجة من لويس الثالث عشر منذ فترة طويلة، دون أن تنجب الوريث الذي يجب أن يؤمّن استمرار عائلة البوربون على عرش فرنسا.

وهي لم تضع مولودها الأول، لويس الرابع عشر، إلا بعد مرور عام على علاقتها الخاصة بالوزير الجديد. وربما يستند بعض المؤرخين على المراسلات المتبادلة بين الملكة ومازاران ليستنتجوا منها بأن هذه العلاقة قد تكون قد وصلت إلى حد الزواج السري بينهما.

وعلى أية حال، فإن مازاران سيحقق في فرنسا ما لم يستطعه في إيطاليا. فهو الذي عجز في نهاية عام ١٦٣٦ م عن الحصول على منصب السفير البابوي في باريس، سيجد نفسه في عام ١٦٤٠ م مرشحا لرتبة كاردينال بدعم من ريشيليو والملك لويس الثالث عشر. وعليه أن يتصرف على هذا الأساس من الآن وصاعدا. ولذلك فإنه سيكتب إلى أهله الذين كانوا يسكنون في منزل صغير متواضع ليعلمهم بأنه سيشتري قصرا يليق به وبعائلته في روما. وينجح في شراء قصر يقع على أحد تلال روما الجميلة كان معروضا للبيع مع أثاثه بسعر معقول، وسيقوم مازاران بشرائه في شهر مارس سنة ١٦٤١ بمبلغ ٧٥ ألف قطعة ذهبية.

وفي نهاية العام نفسه تم تكريسه كاردينالا، وفي حين كانت عائلته تنتظر بكثير من الترقب والشوق عودته إلى روما، لتحتفل بهذا الارتقاء الجديد لابنها البار بدأت صحة ريشيليو تتدهور بصورة ملحوظة مما أقلق مازاران إلى درجة كبيرة، فهو لا ولن ينسى فضل ريشيليو عليه، وكذا فإن من أبسط واجباته البقاء إلى جانبه، وتحمّل أعباء الدولة نيابة عنه. وسيطلع ريشيليو خلال فترة مرضه الطويلة مازران على الملفات الكبرى للمملكة . وحين حضرته المنية أكد للملك أنه لا يعرف غير مازاران رجلا كفؤا لملء مكانه . واستمع لويس الثالث عشر إلى النصيحة.

لم تكن العلاقة بين لويس الثالث عشر ومازاران على نفس درجة العلاقة التي كانت قائمة بين الملك وريشيليو إلا أنهما لم تكن تعاني من أية شائة.

وقد استقبلت البلاد مازاران للوهلة الأولى، باعتباره رئيسا للوزارة، استقبالا غير مشجع. وراح النبلاء يتناقلون عنه مجموعة من النوادر المهينة. وكان هؤلاء النبلاء يأملون بعد وفاة ريشيليو، الذي ظل أعواما طويلة ينزل بهم العقاب، أن يطلقوا لأنفسهم العنان، وأن يستحوذوا على الأرض والمناصب الكبرى، وأن يغرقوا في ملذاتهم ويحققوا ما يدور في رؤوسهم.

لكن النبلاء خاب فألهم، فقد مات حاكم مسيطر ووصل آخر لا يقل عنه حزما وبراعة وقوة يستطيع بها أن يوقفهم عند حدودهم، وقد نجح مازاران في مبادرته كلها لذكائه وقوة دبوماسيته. وكان قد اختار أن يبقى دائما في الظل فيحرك خططه ومشاريعه من وراء الكواليس. وحظه كان يكمن في أن الملكة كانت مطيعة له تنفذ مطالبه كلها وكان مازاران يعرف كيف يرى الدسائس التي تدبر فيحطمها ويطيح بها في هدوء وفي ثقة شديدة بالنفس.

*** بين مازاران وريشيليو .. اتفاق واختلاف :**

مع أن مازاران كان يفتقد إلى قوة وعزيمة سلفه ريشيليو إلا أنه كان لا يقل عنه ذكاء ورغبة لمتابعة سياسته، حتى قيل بهذا الشأن: (ظهر الثعلب بعد اختفاء الأسد). وفي حين يذهب بعض المؤرخين إلى القول بأنه منذ هيمن مازاران على شئون الحكم صار يسترشد في سياساته بالمبادئ التي وضعها ريشيليو لتأييد سلطان الملكية المطلقة في الداخل وإحراز تفوق للدولة في الخارج. فإن البعض يرى أن أساليب وطبيعة الرجلين قد اختلفت إلى حد ما، وأن أهم وجوه هذا الاختلاف أن ريشيليو كان يقدم المصلحة العامة فوق كل اعتبار، بينما حرص مازاران على خدمة مصالحه الخاصة وجمع الأموال، ولو أن هذا لم يمنعه من تقديم خدمة جليلة لفرنسا خصوصا في ميدان السياسة الخارجية التي برع فيها.

وقد قام أصله الأجنبي عقبة في طريقه. ومع أنه أكد لفرنسا أن قلبه فرنسي، وإن كان لسانه إيطاليا، إلا أن تأكيداته لم تحظ قط بالتصديق التام، فلقد كان رأسه إيطاليا، وقلبه ملكا له. ولا علم لنا كم من هذا القلب اختص به الملكة. إنه خدمها وخدم أطماعه بخبرة، واكتسب ودها، وربما حبها، وكان على يقين من أن سلامته وسلامتها في مواصلة سياسة بناء قوة الملكية تدريجيا ضد أشراف الإقطاع.

وفي سبيل الإثراء تحسبا للمستقبل، إن سقط، جمع المال بحرص الرجل الذي يذكر الفقر أو يخشاه، فحكمت عليه فرنسا، التي بدأت تعجب بفضيلة الاعتدال، بأنه محدث نعمة، وساءتها لكنته الإيطالية، وأقرباؤه الذين كلفوا الدولة غالبا، ولا سيما بنات أخيه، اللاتي تطلب حسنهن جهازا مترفا من الخدم والحشم.

وقد احتقره الكاردينال (رتز) مع أن رتز هذا لم يكن ركنا ركينا للفضيلة ، فزعم أنه (إنسان قذر.. ومحتال أصيل، وشرير لئيم) على أن رتز بعد أن هزمه مازاران لم يكن في وضع يسمح له بإنصاف عزيمه.

وإذا كان مازاران قد جمع المال دون اكتراث للكرامة، فإنه أنفقه بذوق رفيع، فملأ حجراته بالكتب والتحف التي أوصى بها بعد ذلك لفرنسا. وكان ذا أسلوب مهذب يلذ السيدات ويحير الرجال. وقد وصفته امرأة منصفة تدعى مدام دموتفيل، بأنه (يفيض رقة، بعيد كل البعد عن صرامة ريشيليو) وكان سريع العفو عن معارضيه، سريع النسيان لفضل ذوي الفضل عليه!!

وأجمع الكل على أنه لم يدخر جهدا في حكم فرنسا، ولكن هذا التفاني كان يسيء إلى بعض الناس، لأنه كان أحيانا يترك كبار زواره ينتظرون على مضض في حجرات انتظاره.

وكان كل إنسان في رأيه قابلا للرشوة، وكان عديم الإحساس بالنزاهة، أما أخلاقه الشخصية فلم يكن بها بأس إذا ضربنا صفحا عن الشائعات التي تقول بأنه جعل من مليكته خليلة له، وقد صدم الكثيرين في البلاط بدعاباته الشكاكة في الدين، ومن ثم عزوا تسامحه الديني إلى افتقاره للإيمان ، وكان أول أعماله توكيد مرسوم نانت، فسمح للبروتستانت أن يعقدوا مجامعهم في سلام ولم يكابد أي فرنسي الاضطهاد الديني في عهد وزارته.

*** مازاران.. نجاحات وعقبات :**

كانت مهمة مازاران المباشرة مواصلة الحرب بنجاح منذ أن تدخلت فرنسا في حرب الثلاثين سنة في عهد سلفه ريشيليو، ولقد سار في هذه الناحية على نهج أستاذه واستطاع أن يحقق الأهداف التي كان يعمل من أجلها. وهكذا بلغت فرنسا بمقتضى صلح وستفاليا سنة ١٦٤٨ مبلغا عظيما من السطوة والنفوذ، وحققت ما كانت تهدف إليه سياساتها التقليدية من عدم قيام جار قوي على حدودها الشرقية، وذلك بعد أن تحطمت قوة إمبراطورية النمسا وخرجت من الصراع الطويل منهوكة القوى ومفككة الأوصال. وبمقتضى هذا الصلح أيضا حصلت فرنسا على إقليم الألزاس وتول ومتز وفردان. ولم تلبث أن ضمت إليها

أملاكًا أخرى بعد مضي إحدى عشرة سنة من تاريخ ذلك الصلح بمقتضى صلح البرانس مع إسبانيا سنة ١٦٥٩ .

ومع إنجلترا سيقيم مازاران علاقات وثيقة سيتوجها بتزويج فيليب دورليان، شقيق لويس الرابع عشر، من هنرييت ، شقيقة شارل الثاني ملك إنجلترا.

والواقع أن صلح وستفاليا لم يشمل إسبانيا التي انسحبت من المفاوضات، ومن ثم كان من الضروري قتالها. لكن اضطراب الأمور الداخلية في فرنسا حال دون ذلك. فقد انتهز النبلاء فرصة وفاة ريشيليو ولويس الثالث عشر وقيام الوصاية التي ظنوا فيها الضعف وأرادوا أن يستردوا امتيازاتهم وقوتهم المفقودة. فتآمروا للتخلص من مازاران وقتله عند الضرورة، والاستئثار بالحكومة، ولكن الملكة ومازاران أسرعا بإنزال العقوبات الصارمة بالمتآمرين، ليتفرغا بعد ذلك لمواجهة خطر أشد من الخطر السابق، وهو ثورة الفروند.

*** ثورة الفروند :**

في حين كان مازاران يهدف في سياسته الخارجية والداخلية إلى أمر واحد وهو أن يجعل من فرنسا دولة مرهوبة الجانب في أوروبا.. فقد فشل في القضاء على حالة الفساد والفوضى المتفشية في إدارات الدولة، ولم يستطع تنظيم حالة الضرائب التي زادت نتيجة الحروب العديدة وكلفت فرنسا نفقات طائلة وتركت خزائنها خاوية، بل وثقيلة الدين.

لقد كان نظام الضرائب الصارم موضع سخط شديد. أضف إلى هذا إسراف الملكة (آن) وما أنفقته الحكومة في استمالة النبلاء وشراء مساعداتهم لها. حتى استنفدت الحكومة بسبب ذلك كله إيرادات السنوات الثلاث التالية لسنة ١٦٤٨ مقدما. وتأخرت رواتب الجند وموظفي الحكومة. ولم يكن مازاران خبيرا بالشئون المالية، بل اعتمد في هذا على أحد الإيطاليين المغامرين هو (دي إيمري) الذي أخذ على عاتقه أن يملأ خزانة الحكومة، وأن يقتطع جانبا من الأموال لنفسه، وذلك بابتكار أنواع جديدة من الضرائب، وإحياء الأوامر الملكية القديمة، وإنشاء الوظائف وبيعها، والاستدانة بفوائد باهظة، وبيع ألقاب النبل والشرف، إلى غير ذلك من التدابير التي أثارت السخط العام وزادت في بؤس

البلاد وشقائها وهيأت الأفكار للثورة ضد الحكومة.

والواقع أن خطورة أساليب مازاران ودي إيمري قد ازدادت آثارها السلبية لأنها أساءت إلى باريس أساسا فقد تم فرض ضريبة على المساكن في ضواحي العاصمة. كما حدث تدخل صارم في عملية الاستثمار المفضلة لدى الباريسيين، ألا وهي الإيجارات التي حددتها بلدية باريس. كذلك ازدادت خطورة هذه الأساليب لأنها تعاصرت مع سريان روح الثورة في أوربا آنذاك، ففي عام ١٦٤٨ كانت الثورة ناشبة في نابولي وقطالونيا والبرتغال وفي إنجلترا. وقد كان لذلك آثاره وانعكاساته في فرنسا.

يقول ديورانت في «قصة الحضارة» مصورا هذه الفترة من تاريخ مازاران: ومن عجب أنه احتفظ بسلطته كل هذا الزمن برغم كراهية الناس له. فقد كرهه الفلاحون لما أثقل كواهلهم من ضرائب يستعين بها على خوض غمار الحرب، وكرهه التجار لأن المكوس التي فرضها أضرت بالتجارة، وكرهه الأشراف لأنه اختلف معهم حول مزايا الإقطاع. وكرهته «البرلمانات»، لأنه وضع نفسه والملك فوق القانون. وزادت الملكة من كره الناس له بحظرها توجيه النقد لحكمه. وقد أيدته لأنها وجدت نفسها في وضع تتحداها فيه جماعتان رأتا في طفولة الملك، وفي ضعف المرأة الموهوم منفذا إلى السلطة: الأشراف الذين عللوا أنفسهم باسترجاع امتيازاتهم الإقطاعية السابقة على حساب الملكية. والبرلمانات التي تطلعت لإحالة الحكومة إلى أرستقراطية من المحامين.

إزاء هاتين القوتين - (أرستقراطية السيف العريقة) و(أرستقراطية الرداء) الأحدث عهدا - التمست الملكة درعًا لها في عناد مازاران المقترن بالمرونة والدهاء.

وقد بذل أعداؤه محاولتين عنيفتين لخلعه والسيطرة عليها. هما ثورة الفروند الأولى (١٦٤٨ - ١٦٤٩) وثورة الفروند الثانية (١٦٥٠ - ١٦٥٣) .

*** ثورة الفروند الأولى :**

بدأ برلمان باريس ثورة الفروند الأولى (١٦٤٨ - ١٦٤٩) محاولا أن يكرر في فرنسا تلك الحركة التي كانت لتوها قد رفعت البرلمان الإنجليزي فوق

الملك مصدرًا للقوانين وحَكَما فيه. وكان برلمان باريس، بعد الملك، المحكمة العليا لفرنسا، وقد قضت التقاليد ألا يقبل الشعب قانونا أو ضريبة إلا إذا سجل هؤلاء الموظفون القضائيون (وكلهم تقريبا محامون) القانون أو الضريبة. وكان ريشيليو قد اختزل هذه السلطات أو تجاهلها، فصمم البرلمان الآن على تأكيدها. وأحس أنه قد آن الأوان لجعل الملكية الفرنسية ملكية دستورية خاضعة للإرادة القومية يعبر عنها مجلس نيابي. ولكن برلمانات فرنسا الاثنى عشر لم تكن مجالس تشريعية انتخبتها الأمة كما كانت الحال في إنجلترا، بل كان عبارة عن هيئات قضائية وإدارية ورث أعضاؤها مقاعدهم أو وظائفهم القضائية عن آبائهم، أو عينهم الملك فيها. ولو أن ثورة الفروند الأولى كتب لها الفوز لتحولت فرنسا إلى أرستقراطية من المحامين. وكان في الإمكان تطوير مجلس طبقات الأُمة، المؤلف من مندوبين عن الطبقات الثلاث (النبلاء ورجال الدين وباقي الشعب) إلى مجلس نيابي يكبح جماح الملكية، ولكن مجلس الطبقات لم يكن يملك حق دعوته للانعقاد إلا الملك، ولم يدعه أي ملك منذ سنة ١٦١٤ ولن يدعوه حتى سنة ١٧٨٩ ، ومن هنا اندلاع الثورة الفرنسية.

على أن برلمان باريس تحول إلى هيئة نيابية بصورة غير مباشرة، يوم اجترأ أعضاؤه على الكلام نيابة عن الأمة. فنرى أومير تالون، في أوائل ١٦٤٨ ، يندد بالضرائب التي أفقرت الشعب على عهد ريشيليو ومازاران، إذ يقول:

(لقد ألحق الخراب بفرنسا طوال عشر سنوات. فاضطر الفلاحون أن يناموا على القش بعد أن بيعت أمتعتهم وفاءً للضرائب. وتمكينا لنفر من الناس أن ينعموا في باريس بحياة البذخ أكرهت جماهير لا حصر لها أن تعيش على الخبز القفار.. فاقدةً كل شيء إلا نفوسها ، وهذه لم تترك لها إلا لأن أحدًا لم يجد سبيلا لعرضها للبيع).

وفي ١٢ يوليو ١٦٤٨ ، انعقد البرلمان في قصر العدالة مع غيره من محاكم باريس ووجهوا إلى الملك وأمه مطالب عدة لابد أنها بدت لهما ثورية، فقد طالبوا بخفض ربع الضرائب الشخصية كلها، وبألا تفرض ضرائب جديدة دون موافقة البرلمان بالتصويت الحر، وبطرد النظار الملكيين Intondants الذين حكموا الأقاليم دون اكتراث للحكام والقضاء المحليين، وبألا يحبس شخص

أكثر من أربع وعشرين ساعة دون أن يمثل أمام القضاة المختصين.

ولو أن هذه المطالب أجيبت لأصبحت حكومة فرنسا ملكية دستورية، ولسارت فرنسا جنبا إلى جنب مع إنجلترا في تطورها السياسي.

بيد أن الملكة الأم ربطتها بالماضي جذور أقوى من البصر بالمستقبل، إذ لم يكن لها عهد قط بأي شكل من أشكال الحكم سوى الملكية المطلقة. وقد أحست أن التخلي عن السلطة الملكية على هذا النحو المقترح الآن مُفْض لا محالة إلى صدوع لا رأب لها في صرح الحكومة الوطيد، وإلى تقويض تلك الركيزة السيكولوجية التي يستمدها من التقاليد والعرف، والنزول بها إن عاجلا أو آجلا إلى فوضى الجماهير المتسيدة. ثم يالها من سُبة أن تسلم ولدها سلطة دون تلك التي تمتع بها أبوه أو ريشيليو!! ذلك تقاعس عن واجبها سوف يوقفها موقف الإدانة أمام محكمة التاريخ.

ووافقها مازاران لما رأى من قضاء مبرم عليه في هذه المطالب الوقحة من هؤلاء القانونيين المستنطعين. ومن ثم أمر في ٢٦ أغسطس ١٦٤٨ بالقبض على بيير بروسيل وغيره من زعماء البرلمان. إلا أن بروسيل العجوز كان قد اكتسب محبة الناس بهذا الشعار الذي أذاعه (لا ضرائب) فاحتشد جمهور من الغوغاء أمام القصر الملكي، وتعالى صياحهم بطلب الإفراج عنه.

وقد أطلق عليهم اسم الرماة (Frondeurs) لما كان يحمل الكثيرون منهم من مقاليع أو مراجيم، كما أطلق اسم (الفروند) على هذا التمرد.

على أن جان فرنسوا بول دجوندي - الملقب برتز فيما بعد - مساعد رئيس أساقفة باريس وخليفته المنتظر، نصح الملكة بالإفراج عن بروسيل، فلما أبت انسحب غاضبا، وعاون على استعداء الشعب على الحكومة، وكان خلال ذلك يستخدم نفوذه خفية في محاولة للظفر بقبعة الكاردينالية.

وفي ٢٧ أغسطس اتخذ أعضاء البرلمان، وعددهم ١٦٠ طريقهم إلى القصر الملكي مخترقين الحشود والمتاريس، تشد أزرهم هتافات تصيح: (يحيى الملك! إلى الموت يا مازاران!).

ورأى الوزير الحَذِر أن اللحظة تتطلب الحكمة لا الشجاعة، فنصح الملكة بأن تأمر بالإفراج عن بروسيل، فوافقت، ثم إذ أحفظها هذا النزول على رغبة الجماهير

اعتكفت هي والملك الصبي في ضاحية روبل، وأجاب مازاران البرلمان إلى مطالبه مؤقتا، ولكنه طاوله في تنفيذها. وظلت المتاريس في الشوارع. فلما غامرت الملكة بالعودة إلى باريس صاحت الجماهير بها صيحات الازدراء، وسمعت بأذنيها تندرها بعلاقتها بمازاران. ثم عاودت الهروب من المدينة في ٦ يناير ١٦٤٩ ، مصطحبة في هذه المرة الأسرة المالكة والبلاط إلى سان جرمان، حيث توسد الحريرُ القشَّ، ورهنت الملكة جواهرها لتشتري الطعام. أما الملك الصغير فلم يغفر قط لهذا الحشد فعلته، ولم يحب عاصمة ملكه قط.

وفي ٨ يناير أصدر البرلمان في أوج تمرده مرسوما طرد به مازاران من حماية القانون واستعدى عليه كل الفرنسيين الصالحين ليطاردوه ويقبضوا عليه باعتباره مجرما. وقضى مرسوم آخر بالاستيلاء على كل الأموال الملكية واستعمالها في أغراض الدفاع العام.

ورأى كثيرون من النبلاء في هذا التمرد فرصة لاستمالة البرلمان إلى قضيتهم- قضية استردادهم امتيازات الإقطاع - ولعلهم أيضا خشوا من أن يفلت زمام الحركة إذا لم يتزعمها ذوو الألقاب الرفيعة. وانضم إليهم كبار الإقطاعيين أمثال أدواق لونجفيل، وبوفور، وبوبون، وحتى أمير كونتي البوربوني الدم، وأمدوها بالجند والمال وحرارة العاطفة. فأقبلت دوقة بوبون ودوقة لونجفيل - الرائعة الحسن برغم إصابتها بالجدري - مع أطفالهما للعيش في الأوتيل دي فيل رهائن مختارة لضمان ولاء زوجيهما للبرلمان والشعب.

ثم حالف الحظ الملكة فأنقذ الملكة عداء بين أمير كونتي وأخيه الأكبر لويس الثاني البوربوني، أمير كونديه - وهو (كونديه العظيم) ذاته الذي قاد الجيش الفرنسي من قبل إلى النصر في روكروا ولنز. وإذ شمخ بأنفه القوي على تمرد المحامين والغوغاء، فإنه عرض خدماته على الملكة والملك، فوكلت إليه في ابتهاج قيادة جيش ضد باريس المتمردة - أي ضد أخيه، وضد أخته دوقة لونجفيل - والعودة بالأسرة المالكة في أمان إلى القصر الملكي.

جمع كونديه الجند وحاصر باريس، واستولى على شارنتون، المخفر الأمامي الحصين. أما النبلاء المتمردون فقد طلبوا المعونة من إسبانيا والإمبراطورية. وكان الطلب غلطة، ذلك أن عاطفة الوطنية كانت عند البرلمان والشعب أقوى من

الإحساس الطبقي. وأبى معظم أعضاء البرلمان أن يلغوا أعمال ريشيليو وانتصاراته بإعادة تفوق الهابسبورج على فرنسا وبدأوا يتبينون أنهم إنما يُسْتعمَلون معبرا في محاولة لاسترجاع نظام إقطاعي من شأنه أن يقسم فرنسا ثانية إلى أقاليم مستقلة فرادى. وفي نوبة تواضع مفاجئة أرسلوا وفدا إلى الملكة، وعرضوا الخضوع لها، مؤكدين أنهم كانوا على الدوام يكنون لها الحب. أما الملكة فقد منحت جميع المتمردين عفوا عاما، شريطة أن يضعوا السلاح، وسرَّح البرلمان جنوده، وأبلغ الشعب أن طاعة الملك هي واجب الساعة. وأزيلت المتاريس. وعادت الملكة آن، ولويس الرابع عشر، ومازاران إلى قصبة الملك في ٢٨ أغسطس ١٦٤٩ م.

والتأم شمل البلاط من جديد، وانضم إليه النبلاء المتمردون كأن شيئا لم يقع، اللهم إلا سحابة قد انقشعت، واغتفر كل شيء ولم ينس شيء، ووضعت ثورة الفروند الأولى أوزارها.

*** ثورة الفروند الثانية :**

كانت ثورة الفروند الثانية أضعف في أسبابها من الأولى إذ لم تكن لها أغراض دستورية، وإنما كانت من عمل الأرستقراطية الغاضبة. ذلك أن كونديه أحس أن خدماته تخول له الترؤس على مازاران. فتشاجر الاثنان، واتصل كونديه بالنبلاء المتذمرين يجس نبضهم، أما مازاران ففي أجرأ لحظات حياته أمر بحبس كونديه وكونتي ولونجفيل في ١٨ يناير ١٦٥٠ م وهرولت مدام لونجفيل إلى نورماندي، وأثارت حركة تمرد فيها، ثم مضت إلى الأراضي المنخفضة الإسبانية وفتنت تورين Turenne حتى ارتضى خيانة العرش وانضم إلى جانب النبلاء رغم طبيعته المسالمة والموالية للملكية، فوافق القائد العظيم على أن يقود جيشا إسبانيا ضد مازاران.

يقول فولتير : (واصطدمت كل الأطراف بعضها ببعض، وأبرموا المعاهدات، ثم خان كل منهم الآخر واحدًا إثر واحد، وما من رجل لم يغير ولاءه غير مرة).

وقال ريتز ذاكرا تلك الفترة: (كنا على استعداد لقطع رقاب بعضنا البعض عشر مرات كل صباح). وكان هو نفسه على وشك أن يقتل بيد لارو شفوكو.

قامت قوة ملكية بمناورة في بوردو انتهت باستسلامها، وقاد مازاران جيشا إلى فلاندر، وهناك هزم تورين الذي لا يقهر. أما ريتز التواق إلى الحلول محل وزير

الملكة، فقد أقنع البرلمان بأن يجدد مطلبه بنفي مازاران. وفقد الكاردينال مازران جرأته فأمر بالإفراج عن الأمراء المسجونين في ١٣ يناير ١٦٥١ ، ودفعه الخوف على حياته إلى الهرب إلى برول القريبة من بولونيا. أما كونديه المتحرق للثأثر من الوزير والملكة جميعا فقد ربط بين أخيه كونتي وأخته لونجفيل ودوق نامور ولارو شفوكو في حلف جديد. وفي سبتمبر أعلنوا الحرب، واستولوا على بوردو، وأحالوها معقلا للثورة من جديد. ووقع كونديه تحالفا مع إسبانيا، وتفاوض مع كروميل في إنجلترا ووعد بأن يقيم جمهورية في فرنسا .

وفي ٨ سبتمبر أعلن لويس الرابع عشر أنه سوف ينهي وصاية أمه عليه، ورغبة في تهدئة البرلمان أيد نفي مازاران، ولكنه استجمع شجاعته في نوفمبر فاستدعى الوزير ثانية، وعاد هذا إلى فرنسا على رأس جيش. أما جاستون أورليان فقد لعب الآن دور الحياد، ولكن تورين انحاز إلى صف الملك. وفي مارس ١٦٥٢ أوفد لويس حامل أختامه (موليه) ليطالب بولاء مدينة أورليان. فبعث قضاتها برسالة عاجلة إلى جاستون هددوه فيها بتسليم المدينة إلى الملك ما لم يعد هو وابنته ليستنفرا أهلها.

هنا ظهرت على مسرح الأحداث امرأة من أشهر نساء فرنسا، شبهها بعضهم بـ (جان دارك) ثانية أقبلت لتنقذ أورليان. هذه المرأة - آن ماري لويز دورليان - كانت قد رفعت راية العصيان في طفولتها حين نفى ريشيليو أباها. وكان جاستون يلقب رسميا بـ (المسيو) باعتباره شقيق لويس الثالث عشر، أما زوجته ماري بوربون، دوقة مونباسييه، فهي (مدام) ذلك العهد، وابنتهما إذن هي (المدموازيل)، ولما كانت هذه الفتاة قوية البنية فارعة القوام فقد سميت (الجراند مدموازيل دمونباسييه). وإذ كانت ذات ثراء عريض فقد شبت على كبرياء المال والنسب، وكانت تقول: (إنني أنتمي إلى بيت لا يفعل إلا ما هو جليل نبيل). وقد تطلعت إلى الزواج من لويس الرابع عشر، فلما لم تلق تشجيعا احتضنت التمرد. وحين سمعت استغاثة مدينتها ورأت أباها (جاستون) يكره أن يخوض المعمعة، حصلت على رضاه بأن تنوب عنه. ولقد طالما غاظتها القيود التي فرضها العرف على بنات جنسها، ولشد ما أنكرت حرمان النساء من الانخراط في سلك الجندية. ومن ثم فقد لبست درعًا وخوذة، وجمعت حولها لفيفا من كرائم النساء

المسترجلات وقوة صغيرة من الجند زحفت بها في مرح وابتهاج على أورليان. وأبى القضاة أن يدخلوها المدينة خشية إغضاب الملك، فأمرت بعض رجالها أن ينقبوا ثغرة في الأسوار، ومنها تسللت وبرفقتها كونتيستان بينما الحراس يغفون أو يغضون. وما إن أفلحت في دخول المدينة حتى استطاعت أن تلهب مشاعر أهلها بسحر خطبها النارية. وهكذا رُدَّ موليه عن المدينة خاوي الوفاض وأقسمت أورليان يمين الولاء (للعذراء) الجديدة.

وبلغت ثورة الفروند الثانية ذروتها على أبواب باريس. فقد زحف كونديه عليها من الجنوب، وهزم جيشا ملكيا، وأوشك أن يأسر الملك والملكة، والكاردينال مازاران، وبينما كان جيشه يقترب من باريس طافت الجماهير شوارع باريس في موكب ضارعة إلى الله أن ينصر كونديه ويُسقط مازاران. أما الجراند مدموازيل فقد هرعت من أورليان إلى قصر لكسمبورج حيث كان أبوها لا يزال على تذبذبه، وطلبت إليه أن يؤيد كونديه، ولكنه رفض. واقترب الآن تورين وجيش الملك، والتقيا بقوات كونديه خارج الأسوار قرب بوابة سانت أنطوان (ميدان الباستيل الآن). وكاد تورين يكسب المعركة، لولا أن المدموازيل اندفعت إلى الباستيل وحرضت مأموره على تصويب مدافعه على جنود الملك. ثم أمرت القوم داخل الأسوار، باسم أبيها الغائب، أن يفتحوا الأبواب برهة ريثما يدخل جيش كونديه، ثم يغلقوها في وجه جيش الملك في ٢ يوليو ١٦٥٢، وهكذا كانت المدموازيل بطلة الساعة.

وغدا كونديه سيد باريس، ولكن الرؤوس المتزنة أخذت تنقلب عليه، ولم يستطع أن يدفع رواتب جنده، فبدأوا يهجرونه وأفلت زمام الجماهير. وفي ٤ يوليو هاجم الغوغاء قاعة المدينة مطالبين بأن يسلم إليهم جميع مؤيدي مازاران، وإظهارًا لسخطهم أشعلوا النار في المبنى، وقتلوا ثلاثين من المواطنين. وتعطلت العمليات الاقتصادية، وعمت الفوضى المدينة وانقطع إمداد المدينة بالطعام، وخشي نصف أسرات باريس الموت جوعا، وتساءلت الطبقات المالكة: أليست الأوتوقراطية الملكية، بل أليس حكم مازاران، أهم من حكم الرعاع؟! وأعان مازاران الموقف حين ارتضى لنفسه النفي طوعا، تاركا الفرونديين بغير قضية توحد صفوفهم. أما ريتز فقد رأى أن الوقت قد حان لدعم مكاسبه بعد أن تم له

الظفر بقبعة الكردينالية الحمراء التي طالما اشتهاها، فاستخدم الآن نفوذه ليشجع الولاء للملك.

وفي ٢١ أكتوبر عادت الأسرة المالكة إلى باريس دون أن يمسها سوء. وافتتن الباريسون بمنظر الملك الصغير، ورددت الشوارع هتاف الجماهير (يحيى الملك) وما لبث هياج الشعب أن هدأ بين عشية وضحاها، وأعيد النظام لا بفضل القوة، بل بهالة الملكية، وهيبة الشرعية. وما وافى ٦ فبراير ١٦٥٣ حتى استشعر لويس في نفسه من القوة ما شجعه على دعوة مازاران للعودة وتثبيته مرة أخرى في جميع سلطاته السابقة. ووضعت ثورة الفروند الثانية أوزارها. وفر كونديه إلى بوردو، وخضع البرلمان في بطء ووقار، واعتكف النبلاء المتمردون في قصورهم الريفية. ونفيت الجراند مدموازيل إلى إحدى ضياعها.

أما مازاران فقد هبط على قدميه دون أن يضار، وعاد سيدًا على المملكة، وخادما لملك ما زال راغبا في التعلم. وقد روَّع فرنسا أن يبرم الوزير معاهدة مع إنجلترا البروتستانتية وكرومويل قاتل ملكها (١٦٥٧)، الذي أعان على محاربة كونديه والإسبان بإرساله ستة آلاف جندي، وأحرز الفرنسيون والإنجليز معا النصر في (معركة الكثبان) في ١٣ يوليو ١٦٥٨م. وبعد عشرة أيام سلم الإسبان دنكرك، فدخلها لويس في احتفال رسمي مهيب، ثم نزل عنها لإنجلترا طبقا للمعاهدة. وأبرمت إسبانيا مع فرنسا صلح البرانس في ٧ نوفمبر ١٦٥٩ م بعد أن استنزف القتال مالها ورجالها فأنهت بذلك ثلاثة وعشرين عاما من الحرب، وقد صدر العفو عن كونديه وسمح له بالعودة إلى فرنسا، وتم الاتفاق لتحسين العلاقات بين فرنسا وإسبانيا - على أن يتزوج لويس الرابع عشر من الأميرة الإسبانية ماريا تريزا Maria Theresa كبرى بنات فيليب الرابع ملك إسبانيا. وقد تنازل لويس الرابع عشر في ذلك العقد عن كل ما يخص زوجته من أملاك إسبانية أو من حق في عرش إسبانيا. ولكنه اشترط أن يكون ذلك لقاء مبلغ مالي كبير بلغ ٥٠٠,٠٠٠ جنيها ذهبيا تدفعه إسبانيا.

كان صلح البرانس مع إسبانيا الدليل على إنجاز برنامج ريشيليو - وخلاصته كسر شكة الهابسبورج، وحلول فرنسا محل إسبانيا أمة متسلطة في أوروبا. واعترف الفرنسيون في الوصول بهذه السياسة إلى ختامها الظافر، ومع أنه لم يظفر إلا بحب القليلين منهم، فإنهم رأوا فيه رجلا من أكفأ الوزراء في تاريخ فرنسا. ولكن فرنسا التي سرعان ما نسيت خيانة كونديه، لم تغتفر لمازاران جشعه وحرصه. ففي وسط الفاقة التي كابدها الشعب جمع ثروة طائلة، وكان يحول المخصصات الحربية إلى خزائنه الشخصية، ويبيع وظائف التاج لمنفعته الخاصة ويقرض الملك بالربا، وقد أهدى إحدى بنات أخيه قلادة ما زالت تعد من أغلى الحلي في العالم.

◆ نهاية مازاران ◆

كان مازاران يعاني من حمى التيفوئيد منذ فترة طويلة، وبالتحديد منذ تعيينه سفيرا بابويا في باريس. وفي سنة ١٦٤٤ تفاقمت هذه الحمى في جسده لدرجة أنه كاد أن يموت. وابتداء من سنة ١٦٥١ سيعترف للملكة الأم بهذا الداء الذي يسبب له آلاما مبرحة تفقده القدرة على الاستيعاب في بعض الأحيان. وستتضاعف هذه النوبات انطلاقا من عام ١٦٥٧ بصورة متزايدة لتحرم مازاران من الكتابة ولترهقه إلى درجة قصوى.

في ٦ فبراير ١٦٥٩ ، اندلعت النار في قصر اللوفر، ووصلت إلى شقة مازاران. ويروي لويس دي بريان، مساعده الشخصي، كيف هرع لإنقاذه من الخطر المحدق به: (ركضت إلى شقة الكاردينال، وهناك التقيت به وهو يخرج من جناحه الخاص، يرفعه رئيس حرسه من تحت إبطه، كان محبطا، ويرتسم اليأس في عينيه، إما لأن الخوف من أن يموت محترقا في سريره كان قد أوصله إلى هذه الحالة، وإما لأنه كان يرى في هذا الحريق الكبير إنذارا أرسلته له السماء عن نهايته القريبة).

بعد نقله وهو على حافة الموت إلى قصره في شارع ريشيليو، سيجتمع الأطباء وبينهم جينو (طبيب مازاران) ليقولوا بوفاته القريبة. بعد أن عرف مازاران أنه لم يبق له أكثر من شهرين على قيد الحياة، قام بحجز نفسه في مكتبه، حيث راح يفكر جديا في الموت.

حتى اللحظة الأخيرة من حياته كان مازاران لا يستطيع إبعاد الناس عن سريره. فالمقربون منه وأعضاء العائلة المالكة كانوا يحيطونه بعناية فائقة، حتى أن الملكة أصرت على أن يرتاح في غرفة موازية لغرفتها كي تستطيع السهر عليه. وكان كل أفراد البلاط في قصر فانسان يراقبون تطور احتضار الكاردينال بكثير من القلق كما لو كان ملكا.

وهو على فراش الموت، وقد أحس أن شمعة الحياة تنطفئ رويدا رويدا كتب وصيته، التي عبر فيها عن كم هو مدين للأسرة المالكة بالفضل والعظمة والثروة التي يمتلكها. ترك مازاران بموجب وصيته جزءًا كبيرا من ثروته الشخصية التي كانت تقدر آنذاك بأربعين مليون قطعة من الذهب، للملك لويس الرابع عشر. وترك له أجمل ما يمتلك من لوحات فنية وتحف نادرة ومجوهرات ثمينة، كما سيتنازل عن مكتبته الخاصة الغنية جدا، وعن قصره الخاص الذي سيدفن فيه، والذي سيصبح فيما بعد مركزا للأكاديمية الفرنسية.

ولما حضرته الوفاة أشار على لويس بأن يكون وزير نفسه الأول، وألا يترك مسائل السياسة العليا لأي من مساعديه إطلاقا. وكانت وفاته في ٩ مارس ١٦٦١.

*** إرث مازاران الفكري والسياسي :**

ترك مازاران إرثا فكريا وسياسيا ذا قيمة عالية، وتمثل هذا الإرث في المراسلات الغزيرة التي تبادلها مع مساعديه وكبار رجال عصره ، والملاحظات الكثيرة التي دونها في دفاتره عن مختلف الأمور والقضايا. أيضا تمثل (الوصايا) (Le Brviaire de Politicians) خلاصة فكره في ممارسة السلطة، كما لقنها لتلميذه ومليكه المتفوق لويس الرابع عشر.

ومن الغريب أن هذه الأوراق التي تركها مازاران، والتي ملأت سبع مجلدات ضخمة، لم تجد ما تستحق من عناية الدارسين والمؤرخين إلا منذ فترة قريبة. ربما يكون ذلك بسبب أن (الوصايا) - أو الدليل ، كما يسميها بعض الكتاب - وبسبب الشهرة الواسعة التي أحرزتها حتى في زمن لويس الرابع عشر ، كانت تعتبر بحق عصارة ذلك الذهن الوقاد، الذي كان يجسده مازاران في عمله السياسي، وتعكس تجربته الطويلة في الحكم، ومعرفته العميقة بنفسية الحكام والمحكومين.. لذا يزول العجب والدهشة عندما نعرف أنه لم يكن ثمة حاجة ملحة للتفتيش عن أوراق مازاران الخاصة لمعرفة ما تتضمنتها من فلسفة سياسية ما دام أن خلاصة هذه الفلسفة كان موجودة في هذا الكتيب البسيط السهل المنال، الذي يسمى (الوصايا) أو (الدليل).

ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتيب في كولونيا عام ١٦٤٨، ولاقت هذه الطبعة نجاحا منقطع النظير، إذ طبعت أكثر من عشر طبعات متوالية في أنحاء أوروبا، ولم تظهر الترجمة الإيطالية للكتاب، باعتبار أن الأصل كان مكتوبا باللاتينية، إلا في عام ١٦٩٨، في حين لم تظهر الترجمة الفرنسية إلا في القرن العشرين.

والآن .. نتركك مع مازاران ووصاياه، كما خطها قلمه لتستبين منها فكره وشخصيته وسلوكه في الحياة والسياسة .



وصايا مازاران للسياسيين

BREVIAIRE DE POLITICIENS

□ القسم الأول □

(اعرف نفسك)

◆ هل تعرف من تكون ؟ ◆

- هل تشعر أنك سريع الغضب، تشعر بالخوف، وعرضة للتهور، أو للإغواء؟
- ما هي النقائص التي تشعر بها في طبعك؟ وما العيوب التي تظهر في سلوكك عندما تكون في بيت العبادة أو على المائدة مع أناس آخرين، وفي الأنشطة الأخرى في حياتك، وخاصة الأنشطة الاجتماعية؟
- افحص نفسك جسديا: هل نظرتك متعجرفة متكبرة، هل تشعر أن ركبتك أو رقبتك متيبسة، أو أن جبهتك متجعدة، وشفتيك رقيقتان؟ هل مشيتك سريعة جدًّا أم بطيئة جدًّا؟ ما هي المناسبات التي يمكن أن تفقد فيها أعصابك، ويزل لسانك وتخطئ في التصرف؟ هل يحدث ذلك عندما تشرب مشروبات كحولية في أثناء مأدبة؟ أم عندما تحل بك مصيبة أو كارثة؟
- هل يحدث لك ذلك عندما تشعر أن قلبك مجروح.. تلك اللحظة التي وصفها تاسيتوس قائلا: (أفئدة الناس تكون فيها مكلومة).
- هل أنت معتاد على الذهاب إلى أماكن مريبة، ماجنة ذات سمعة سيئة لا تليق بمكانتك.
- تعلم أن تراقب وتدقق في أفعالك، وألا تتهاون أبدًا في هذه المراقبة.
- إنك عندما تتمعن في هذه الأفكار سوف تكون قادرًا على أن تفكر بإمعان وباستمرار في المكان الذي أنت فيه، والظروف المحيطة بك، ومركزك، ومركز هؤلاء الذين تتعامل معهم.
- احرص على تسجيل كل خطأ تقع فيه، وراقب نفسك بناء على ذلك.
- إنه لمن المستحسن لكل شخص أن يخضع نفسه للنقد في كل مرة يرتكب فيها خطأ ما.

- إذا ما قام أحدهم بإهانتك، أو استفزازك فلا تقل شيئا، ولا تقم بأي عمل ينم عن الغضب الذي تشعر به.
- ما دام أن الظروف المحيطة بك تظهر أن إظهار العداء من جانبك غير مفيد أو مجد، فلا تحاول الثأر من عدوك، ولكن تظاهر بعدم الإحساس بأي شيء، وانتظر اللحظة المناسبة. واحرص ألا يظهر على وجهك أي تعبير عن أي شيء تشعر به، بل من الأفضل أن يكون الظاهر على وجهك تعبير البشاشة دائما.
- لا ترسم الابتسامة على وجهك لأول قادم عليك يبدي لك حماسًا.
- احرص دائما على أن تكون لديك معلومات معينة عن الناس، ولا تفشِ أسرارك لأحد، بل تقصَّ أسرار الآخرين.
- احرص على ألا تصدم أقوالك أو أفعالك اللياقة العامة، وخاصة عند وجود الآخرين، لأنك إذا قمت بذلك بنية حسنة وبصورة طبيعية، فإن الآخرين هم الذين سيظنون بك السوء.
- حافظ دائما على مظهر وقور، وعندما تراقب أحدًا في مجلس راقب بنظراتك، ولكن حذار أن يتجاوز فضولك أهداب عينيك.

(هكذا، على ما أعتقد، يتصرف الناس الحذرون والماهرون لكي يظلوا دائما مرتاحي البال).



◆ اكتشف من حولك ◆

- هناك مناسبات تستطيع فيها تجميع معلومات عديدة عمن حولك، مثل مناسبات المرض، والموائد، والأسفار، والدعابات، حتى لحظات السكر، وكل الحالات التي تنشرح فيها النفوس وتكون مستعدة لإخراج كل ما بداخلها (حيث تنجذب الأسود خارج عرينها). كذلك لحظات الحزن والأسى، ولاسيما عندما يكون مبعثها الظلم. لذا عليك الاستفادة من هذا الوضع، ومصاحبة أولئك الذين تحاول الحصول على معلومات عنهم ومنهم(١).

- والحصول على معلومات أكثر عنهم يكون من خلال الاحتكاك بأصدقائهم وندمائهم، وحاشيتهم، وخدمهم ، لأن هؤلاء ترضيهم رشاوي زهيدة، يقدمون مقابلها معلومات كثيرة(٢).

- إذا ساورك شكٌّ بأن لأحد وجهة نظر معينة في قضية ما، فإنه لكي تعرف وجهة نظره الحقيقية عليك الدفاع مع رأيه، فإنه سوف يكون من الصعب عليه، مهما كان حذرا، عدم الكشف عن ذاته ومكنون نفسه، إذا أراد الدفاع عن نفسه، أو إذا اعترض بطريقة ما، وسيخونه التفكير عن طريق الدليل والبرهان ويكشف عن أنه ذو رأي مخالف لرأيك.

- هل تعرف كيف تتعرف على عيوب شخص ما؟ إليك الطريقة؟

اجعل محور الحوار بينكما عن العيوب الأكثر شيوعا وخاصة تلك التي يمكن أن يكون صديقك مصابا بها، فهو سيستخدم أقصى الكلمات لانتقاد أو استهجان رذيلة يعاني منها. هل لاحظت أن بعض المبشرين يندون بأعنف الأساليب بالعيوب المصابين بها شخصيا.

- لاكتشاف الغش أو الكذب استشر أحد الأشخاص حول قضية أو موضوع ما، ثم عد إليه بعد عدة أيام وكلمة عن القضية أو الموضوع نفسه. إنه إذا كان قد

---

(١) ، (٢) حرصنا على إيراد كلام مازاران كما هو ، وكما هو واضح فإن الضمير المعتدل يرفض مثل هذا السلوك من استغلال لحظات الضعف الإنساني لتحقيق مآرب خاصة، أو تقديم الرشوة المحرمة دينيا.. ولكنها السياسة!!

ضللك في المرة الأولى، فإن رأيه سيكون مختلفا في المرة الثانية، لأن العناية الإلهية أرادت لنا أن ننسى أكاذيبنا بسرعة.

- تظاهر بأنك على معرفة بقضية ما ، وتكلم عنها بحضور ذلك الذي يعرفها تماما، عندها سوف يخون نفسه عن طريق تصحيح أقوالك.

- كي تعرف شخصا على حقيقته انظر من يعايش أو يخالل.

- من كان في حزن أو بلوى يكون مستعدا أكثر من غيره لإظهار الأسرار والخفايا عندما تواسيه أو تمدحه.

- حاول أن تجتذب الناس في غفلة منهم ليرووا لك بعضا من قصص حياتهم، ولكي تنجح في ذلك تظاهر بأنك تروي لهم جانبا من قصة حياتك، عندها سيقولون لك كيف خدموا الآخرين، الأمر الذي سوف تستفيد منه في تفسير سلوكهم الحالي. ولكن احذر أن تقول أي شيء حقيقي عن حياتك.

- إليك هذا المثال لتتحقق من ثقافة شخص ما: اعرض عليه قصيدة هجاء، فإذا امتدحها بحماس شديد رغم وضاعة أسلوب القصيدة، فإن هذا يعني أنه شاعر وضيع.

- بنفس الطريقة تستطيع التعرف على ذوقه وخبرته، وذلك عن طريق تقديم وجبات معينة ليعطي رأيه فيها، وهكذا تستطيع إكمال المسيرة للتعرف على مواهبه في موضوعات عدة.

- قد يكون من المفيد لك أن تتسلّى مع الجماعة بالحكم على قضية ما.. فكل واحد منهم سوف يحاول إبراز مكانته وعرض إمكاناته الخاصة. فالمزاح يختلط دائما بشيء من الحقيقة.

- تستطيع أيضا ، وفي المناسبة نفسها التي تتسلّى فيها مع الجماعة، أن تلعب دور الطبيب، عن طريق خلط شراب حيوي بغذاء الشخص، بحيث تجعله منتشيا يثرثر بكل ما عنده[1].

- إن الدليل الذي تكتشف به خبث شخص ما هو أنه يناقض نفسه بيسر. إن

---

(١) يقصد مازاران - بالتأكيد - بالشراب الحيوي الشراب المسكر أو كل ما يغيب الإنسان عن وعيه .. لا تعليق.

إنسانا من هذا النوع قد يصل إلى حد السرقة.

- أولئك الذين يكثرون من مدح أنفسهم، مع كثير من الصخب، لا يمكن اعتبارهم خطرين.

- إن الأشخاص غريبي الأطوار تستطيع أن تتعرف عليهم، فهو ذوو سحنة فظة كئيبة قاسية، يعظون كثيرا، وبأصوات عالية. كما أن أظافرهم قصيرة جدا، ويظهرون تذللا لا ينسجم أو يوافق أي شعور ديني.

- يمكنك أن تتعرف بسهولة إلى ثري جديد خرج لتوّه من الفقر والبؤس، فهو لا يتكلم إلا عن المأكل والملبس، فإن من خرج من بؤس سوف يعلمك كيف تفضل التملك المادي على التكريم أو ميداليات الشرف.

- أولئك الذين يضعفون بسهولة أمام الشراب والنساء ، لا يستطيعون المحافظة بسهولة على سر يؤتمنون عليه، فهؤلاء عبيد لعشيقاتهم، وهم يميلون للكلام كيفما اتفق.

- إليك الآن طريقة تعرّي وتكشف بها الكذابين والمدعين الذين يحكوك لك دائما عن أسفارهم، ورحلاتهم، وحملاتهم، وينسبون لأنفسهم القيام بالمئآت من المآثر عن الادعاء بقضاء أعوام في هذا المكان أو ذاك. قم بعد كل ما تحدثوا عنه، ثم اجمع عدد السنوات، واسألهم في الوقت نفسه: متى بدأوا حياتهم ومغامراتهم، ومتى عادوا منها، وكم هي أعمارهم. سوف ترى عندئذ أنه لا شيء يتطابق مع ما قالوه. كما تستطيع أن تسألهم عن مدينة خيالية تكون قد اخترعت اسمها، وتسألهم عن عدد القصور الموجودة بها، أو عن القلعة الشهيرة التي تطل عليها؛ إلا إذا كنت تتظاهر بمعرفة كل شيء عن حياتهم، فتهنئهم على الخلاص من هذا الخطر أو ذاك ، والذي اخترعوه من خيالهم أيضًا.

- تستطيع التعرف على أخلاق وتقوى شخص بالنظر إلى حياته. فحياته متناسقة لا أحداث مهمة فيها، ولا طموح لديه، ولا يكترث أو يهتم بمظاهر التكريم. فعند إنسان من هذا النوع ليس ثمة تظاهر بالتواضع، ولا سيطرة على النفس. وهو لا يحاول الكلام بصوت هادئ، ولا يظهر أي طموح، بل بالكاد يأكل ويشرب..إلخ.

- إن الناس ذوي العقد السوداوية، أو الكسولة يعلنون بصراحة أنه لا طموح

لديهم، ولا شيء يفتخرون به. لهذا السبب تستطيع انتقادهم إذا لم يقفوا مباشرة إلى جانبك.

- تعرف الرجل المخادع من وداعته المصطنعة، وأنفه المعقوف، ونظرته الحادة.

- لكي تقيم وتكتشف مدى حكمة وذكاء شخص ما، اطلب منه نصيحة حول قضية معينة، سوف تعرف عندها إذا ما كان يمتلك القدرة على الحكم وصواب الرأي.

- لا تثق أبدا بمن يعد بسهولة، فهذا الشخص كذاب منافق.

- تستطيع تحديد قدرة إنسان ما على حفظ سر معين إذا لم يقم بإفشاء سر ائتمنه عليه الآخرون لك تحت مبرر الصداقة، بأن تقوم بإرسال أحد رجالك كي يقدم له اعترافات ، أو أسرارًا، أو من أجل جرّه إلى الكلام عن أسرار كنت قد عهدت بها إليه. لاحظ أن الناس تسترسل بسهولة في الحديث عن أسرارها مع النساء أو الغلمان الذين يحبونهم، وكذلك مع الكبار، أو مع الأمراء الذين يفتخرون بأنهم أصدقاؤهم المتواضعون. وإذا ما قام أحد ما بإفشاء أسرار شخص آخر لك، فلا تئتمنه على أي سر؛ لأنه من المحتمل أن يتصرف مع شخص عزيز عليه مثلما تصرف معك.

- من المستحسن أن تصادر - من وقت لآخر - رسائل حاشيتك، وأن تقرأها بعناية قبل إرسالها من جديد[1].

- أولئك المفرطون في الأناقة، هم بالأحرى مخنثون وتنقصهم الاستقامة الأخلاقية.

- الجنود الشجعان لا تكون سيوفهم محلاة ومرصعة بتكلف، والفنانون الحقيقيون لا يمتلكون أدوات مصطنعة جدًا، إلا إذا كان صغر سنهم وحداثته يغفر لهم ذلك. والعلماء الحقيقيون لا يضيعون وقتهم في التسلية والمظاهر الاجتماعية.

- تستطيع أن تكشف عن وجه المرائي إذا تظاهرت أمامه بأنك قمت بعمل

---

(١) قد تبيح قواعد السياسة أحيانا التجسس على المحيطين بك، بدافع الحذر والحيطة.

غير مقبول، وتحدثت عن هذا العمل كما لو قمت بعمل جيد، فإذا ما هنأك على هذا العمل فإنه يكون إنسانا مرائيا، لأنه كان عليه أن يصمت.

– تستطيع أن تكتشف أيضا حقيقة ذلك الذي يتظاهر بصداقتك. أرسل له أحد رجالك كي يعلن له، بناء على تعليماتك، بأنك على شفير الهاوية، وأن الأسانيد التي كنت ترتكز عليها في مواقفك هي من الناحية القانونية بدون أي قيمة، فإذا ما استمع هذا الشخص إلى رسولك دون مبالاة أو اهتمام فإن عليك أن تحذفه فورًا من قائمة أصدقائك. أرسل إليه أيضا شخصا يطلب منه باسمك النصح والمساعدة، وانظر كيف يكون رد فعله. وبعد أن تكون قد اختبرت حقيقة فضائله تظاهر بعدم تصديق ما نُقل إليك عنه.

– يكشف الجهلاء عن أنفسهم من طريقة حياتهم، فهم يبالغون في كل شيء: في تزيين المنزل وتأثيثه، ويبالغون في الضحك عندما يرتكب أحد ما غلطة لغوية أمامهم، كي يبرهنوا بأن هذه الغلطة لم تفتهم ولا يقعون هم فيها.

– كن على حذر من صغار الرجال فهم عنيدون ومدّعون.

– كيف تختبر التفاهم الكامل بين أصدقائك؟ هاجم أحدهم بالاسم أمام الآخر، امدحه. إن رد فعله (صمت أو فتور) سيكون واضحا.

– اطرح على الجماعة قضايا صعبة الحل، واطلب من الموجودين أن يدلوا برأيهم في كيفية الخروج من هذا الوضع الصعب أو ذاك. واحكم على طباع كل إنسان وعلى قدراته العقلية حسب أجوبته.

– يمكنك أيضا أن تطلب منهم اقتراحات لكيفية النيل من أحد ما، وإذا ما أطلقت الحديث حول القمع، فإن هذا الذي يسهب ويستفيض في شرح أساليب القمع يكون قد عانى كثيرا منه.

– لاحظ أن لمعظم الكذابين غمّازات تظهر في خدودهم عندما يضحكون.

– لا تخش أبدًا من أولئك الذين يهتمون كثيرا بمظاهرهم.

– يمكنك الحصول على الكثير من المعلومات من الشبان، ومن الشيوخ كبار السن، مهما كان الموضوع الذي تطرحه.

– المنافق يكون أحيانا مع، وأحيانا ضد الموضوع نفسه، على حسب الظروف.

- أولئك الذين لديهم القدرة على التحدث بعدة لغات ينقصهم الحكم الدقيق أحيانا، لأن الذاكرة المتخمة تخنق الذكاء[١].

- عندما يصبح أحد الفاسدين من أدعياء الفضيلة وفجأة، راقبه جيدًا.

- إذا كنت تخشى من شخص ما أن يفشي أسرارك أو ينشر ما تقوله أمامه تكلم أمامه عن أشياء تتعلق بك شخصيا، ولم تتكلم عنها من قبل أمام أحد.. إذا شاعت هذه الأقوال وانتشرت، فإنك ستعرف من خانك.

- هناك بعض الناس يحبون سرد أحلامهم. دعهم يثرثرون حول موضوعهم المفضل، واطرح عليهم كل أنواع الأسئلة. بهذا سوف يكتشف أسرار تفكيرهم. وإذا ما ادعى أحدهم - مثلا - أنه يحبك اسأله عن أحلامه، فإذا لم يحلم بك أبدا فمعنى ذلك أنه لا يحبك[٢].

- اكتشف مشاعر الآخرين نحوك بتظاهرك بالعطف عليهم، أو العداء لهم.

- لا تظهر أبدًا أنك قد عرفت الرذائل واختبرتها، ولا تتكلم بكثير من الحماسة عن عيوب الآخرين. سوف يشك بك الآخرون عندها، ويعتبرون أنك لديك النواقص نفسها.

- إذا جاءك واشٍ يحمل اتهامات ضد أحد ما، تصرف أمامه كما لو كنت على معرفة بتلك الاتهامات، وأنك تعرف أكثر مما يعرفه الواشي نفسه. عندئذ ستراه ينطلق بالتفاصيل ليحكي لك عن اتهامات جديدة، لم يكن ليتكلم عنها في ظرف آخر.

- أولئك الذين يظهر كلامهم أنه مصطنع غير طبيعي، ويرفقون جملهم بسعال خفيف، هم مخنثون!!

- الأمر ينطبق أيضا على أولئك الذين يهتمون كثيرا بزينتهم، ولا يفكرون إلا في اجتذاب النظرات إليهم، أو ملاحقة الفتيات، والصبية الصغار.

- إن الأشخاص الخبثاء هم أولئك الذين يكونون على استعداد دائم لنشر

---

(١) يختلف العلم الحديث مع مازاران في هذا الرأي، فاكتساب عدة لغات والثقافة العالية لا تخنق الذكاء، بل تزيده وتصقله.

(٢) بالطبع يصعب تحقيق هذا الشرط، فهل معنى أني لا أحلم بك وأنا نائم، أني لا أحبك.. ربما أحلم بك أكثر إذا كنت أبغضك، وتنغص عليّ حياتي.

الأخبار والموافقة بصورة مستمرة على ما تقوم به. فهم يلعبون معك كوميديا الصداقة، ولكن إذا ما طعنوا في الآخرين أمامك، ضاعف من احتراسك وحذرك، لأنهم لن يتأخروا عن القيام بالأمر نفسه معك.

- إليك طريقة تختار بها رجلا جديرا بكتمان السر: اعهد إلى شخص ما بشيء معين بعد أن تضفي عليه صفة السرية. ثم اعهد بالشيء نفسه إلى شخص آخر. وتكلم مع شخص ثالث كي يقوم بجمع الاثنين الآخرين كي يشير في أثناء حديثه معهم إلى السر الذي عهدت به إليهما.

عندها سوف تستطيع الحكم عليهما، ومعرفة من سيكون البادئ بخيانتك وإفشاء سرك. فإذا ما بقي أحد الاثنين صامتا، فعليك أن تتخذ من هذا اشخص مساعدًا لك.

- كي تطلع على مشاريع وخطط إنسان ما، ارش أحد الأشخاص المقربين منه، إذ بواسطته تستطيع الوصول إلى أفكاره الأكثر سرية.



□ القسم الثاني □

(اعرف من حولك)

◆ اكتساب المكانة عند الآخرين ◆

- حاول أن تتعرف على اهتمامات صديقك، وقدم له هدايا تناسب طبعه. قدم له كتب الرياضيات والطبيعة وغيرها.

- اذهب دائما لرؤيته وزيارته ، استشره في أمورك واتبع آراءه. لكن - لا تكشف نفسك أمامه أبدًا، لأنه إذا أصبح عدوك في يوم من الأيام سيعرف كيف ينتصر عليك.

- لا تطلب منه شيئا لا يرغب هو في منحك إياه. هنئه بعبارات جميلة ولكن مقتضبة في أثناء الاحتفالات والأعياد أو بمناسبة شفائه من مرضه. حدثه دائما عن فضائله وخصاله الحميدة، ولا تكلمه أبدا عن نواقصه وعيوبه.

- امنحه صداقتك، وانقل له الإطراء والمدح الذي سمعته عنه، وداعب أذنيه بالمدائح، ولا سيما تلك التي قرظه رؤساؤه بها.

- لا تظهر له عيوبه أبدًا، ولا تعلن له عن النواقص التي يرمى بها مهما كانت الطريقة التي يطلب منك بها ذلك. وإذا ما ألح عليك تظاهر برفض الاعتقاد أن له نواقص أو عيوبا.. اللهم إلا بعض العيوب الطفيفة. أو اذكر له بعض النواقص التي كان قد اعترف بها سابقا بنفسه، لأن هذا النوع من الحقائق يترك دائما أسًى وحرقة مهما كانت الطريقة التي تحاول استخدامها لإبراز هذه الحقائق، وخصوصا إذا كانت في موضعها الصحيح.

- انقل له باستمرار تحياتك عبر شخص آخر تطلب منه ذلك، أو بواسطة رسائل موجهة إلى أشخاص آخرين.

- لا تدافع أبدًا عن رأي يعارض رأيه ولا تخالفه، وإذا ما كانت لديك الجرأة

للقيام بذلك ، فامنحه الفرصة لإقناعك وتغيير رأيك متظاهرًا بأنك أصبحت تابعا لرأيه مقتنعا به.

- لا تتوانَ أبدا عن مناداته بألقابه التي يحبها، وكن مستعدا لاتباعه في مبادراته، حتى وإن كانت صعبة التحقيق. ولكن لا تحاول أبدًا اكتساب إعجاب شخص ما عند طريق تبني نواقصه، ولا تتخذ أبدًا مواقف متناقضة مع وضعك الشخصي، فرجل الدين مثلا يأنف من المزاح الثقيل، وجلسات الشراب والتهريج.. إلخ.. لأنه إذا ما كانت مواقف من هذا النوع قد تعجب البعض في حينها، فإنها قد تثير أيضا الاحتقار والسخرية، وقد تؤدي فيما بعد إلى كراهية حادة.

- إذا ما اضطررت أحيانا إلى الابتعاد عن طرق الفضيلة، فإن عليك القيام بذلك دون سير في دروب الرذيلة.

- إذا أردت التقرب إلى شخص ما ، والتعرف عليه ، ابدأ بمعرفة من يحوز على إعجابه من بين أفراد حاشيته، ومن يكيد له المكائد، ومن يمتاز بالفكاهة. احصل على تأييد هؤلاء الناس بكل السبل المتاحة أمامك، فذلك سوف يكون مفيدا جدًّا لك في المستقبل. كما يمكنك استخدام نصائحهم لتطوير أعمالك، لأن هذا النمط من الناس يشارك في تحقيق النصائح التي يقدمها لك.

- إذا ما أردت الثأر من شخص ما فعليك أن تجعلهم يرتابون ويشكون في هذا الشخص، وأن تتصرف بشكل يجعل كراهيتك له تنتقل إليهم وتصبح قضيتهم.

- لا تجعل سيدك يأمرك بارتكاب جريمة، فهو قد يشكرك في حينها إلا أنه فيما بعد سوف يرى فيك قاضيا ضده، وسوف يتصور البعض أنك قادر على أن ترتكب بحق السيد ما سعيت لارتكابه بحق شخص آخر، أو سوف تصبح رجلا يمكن شراء فضيلته ووفائه. وإلا فإن أفضل حل لك هو الحصول على المكافأة عن جريمتك وأن تختفي عن الأنظار فورًا.

- اكتب رسالة تقريظ ومدح عن شخص ما ثم اتركها تقع بين يديه.

- هناك أناس يكون مبعث سرورهم في أن يكونوا موضع إعجاب شخص آخر، ولذلك يكفيك معرفة ماذا يعجب أو ينفِّر هذا الشخص الآخر، وتناديه بـ

(أخي) حتى وإن كان أقل منك مرتبة ومكانة، إذ سوف تكون الأول الذي سيُظهر له علامات التكريم، بشرط أن يكون على الأقل من أرومة شريفة وأصل طيب.

- لا تغرق إنسانا بما يحب لدرجة تصيبه بالغثيان، ولكن عليك الإيحاء بدل العطاء وإثارة الرغبة بهذا الشكل. تصرف بالطريقة نفسها حتى مع ما يخص الألعاب والأحاديث.. إلخ. لا تطلب من أي صديق أن يضع تحت تصرفك أي شيء كان، لأنه إذا لم يكن قادرًا على ذلك، أو إذا منحك هذا الشيء ثم استعاده وهو في حالة سيئة فإنه سيحتفظ لك بالكراهية.

- لا تشتر شيئا من صديق لك، لأنه إذا كان الثمن مرتفعا فأنت المتضرر، وإن كان الثمن متدنيا فهو المتضرر.

- تعامل جيدا مع خدم صديقك الأكثر تواضعا، وإلا فإنهم سيشوهون صورتك شيئا فشيئا في ذهن صديقك، وفكر دائما في أثناء حضور مأدبة عنده، أو عندما تكون مدعوا عنده.. تظاهر بأنك تثق بهم، وأفض إليهم بأسرار ذات أهمية زائفة، وبرهن لهم أنك حريص دائما على خدمة صديقك. ولكن احترس فإنك إذا تعاملت بتواضع مع الخدم فإنهم سيحتقرونك، وإذا ما ثرت ضدهم فإنهم سيكرهونك. عليك أن تعاملهم برفق وبصورة رسمية، فإنهم بذلك سوف يحترمونك.

- عليك أن تكون متسامحا وعاطفيا ومحببا مع النبلاء. ارفض علامات التواضع التي تدل على خضوع مبالغ فيه، ولا تنحني كثيرا أمام الآخرين.

- استبعد البخلاء من بين أصدقائك فهم من طبيعة خسيسة.

- إذا كنت تبحث عن تأييد عامة الناس، عِدْ كل واحد منهم بامتيازات مادية، لأن هذا ما يؤثر فيهم ويبحثون عنه وليس التشريف أو المجد.

- إذا كنت مدعوًّا إلى مائدة شخص أقل منك مرتبة.. اقبل ذلك، لكن لا توجه أي انتقاد مهما كان، وأظهر تهذيبا متناهيا مع كل الذين حولك، مع بقائك هادئا في أقوالك، محافظا على وقارك.

- تجنب محاولة الاستحواذ على أي شيء يعود لمن حولك دون موافقتهم أو إذنهم.

- كن رءوفا بمن حولك ، ومشجعا لهم ووزع أعمالك الخيرة بين مختلف فئاتهم.

- إذا تحتم عليك في بعض الأوقات توجيه نقد لهم، فلا تتعرض بالنقد لحكمتهم أو جدارتهم.. امدح مخططاتهم، وعظمة أهدافهم.. لكن الفت انتباههم إلى المشاكل التي سيواجهونها، وبالثمن الذي سيكلفه عملهم، واجعل من نفسك المدافع الدائم عن تجاوزات عامة الشعب.

- راقب ولاحظ بدقة الشخص الذي تريد الحصول على تأييده: ما ميوله؟ هل يميل إلى الأسلحة؟ العلم؟ التسامح؟ الحقيقة؟

- لا تتدخل إلا بصورة استثنائية جدًّا من أجل إنسان ما، لأن كل ما ستحصل عليه لهذا الإنسان سيكون كما لو طلبته لنفسك.

- احرص على أن تحتفظ لنفسك بتأييد الأمير كاملا.

- لا تُفْش لأي إنسان أسرارًا ائتمنك عليها شخص ما لأنك ستفقد احترامه.

- إذا ما أمرت بارتكاب جريمة، اعمل على كسب الوقت، وإيجاد عذر للتهرب من تلك الجريمة، كأن تتظاهر بالمرض، أو أن خيولك قد سُرقت.. إلخ.

- عامل خدم ذلك الذي تريد الحصول على صداقته كأصدقاء، ثم اشترِ ضمائرهم إذا ما كنت بحاجة إلى أن يخونوا سيدهم لمصلحتك[١].

◆ صديق صديقك ◆

- امدح شخصا ما في حضور شخص ثانٍ، فإذا بقي هذا الأخير صامتا فهذا يعني أنه ليس صديقه، وإذا ما غيّر الحديث إلى موضوع آخر، أو إذا رد بصورة مقتضبة، فاعمل على التخفيف من مدحك، أو قل بأن معلوماتك لم تكن كاملة، أو انتقل إلى مدح أناس غيره.

- يمكنك أيضا الإشارة إلى أحد أعماله المعروفة، وسترى إذا ما كان هذا الأخير سينتهز هذه الفرصة للمزايدة عليك أم لا في هذا الصدد. ربما يقول لك إن هذا الإنسان كان موفور الحظ، أو أن العناية الإلهية ساهمت في أعماله الخيرة، أو أن يثني ويمدح أيضا أعمالا أكثر أهمية قام بها أشخاص آخرون، أيضا

(١) يتوافق هنا مازاران مع ميكافيللي، فكل شيء مباح من أجل تحقيق غاية محددة؛ الرشوة، الخيانة.

قد يدعى أخيرا بأن صديقك لم يقم سوى باتباع نصائح شخص آخر.

- يمكنك أيضا أن ترسل له رسالة تطلب فيها توصية إلى ذلك الشخص الذي تفترض أنه صديقك، كي تطلب منه أن يعهد إليك بسرّ ما، وعندها سوف ترى مشاعره بوضوح. أو بلِّغه تحية من جانب هذا الصديق المفترض، أو قل له أنك تلقيت أنباء سيئة تتعلق به، وراقب رد فعله.

◆ اكتساب الاحترام والمكانة ◆

- لا تكن متأكدًا أبدًا من أن أحدًا ما لن يخونك إذا تصرفت أمامه بشكل سيئ، أو إذا تكلمت بطريقة إباحية ومبتذلة. في هذا الموضوع أيضا لا تثق بخادم أو أي أحد، فمن مسألة خاصة صغيرة سيتوصل الإنسان إلى نتيجة عامة لتكوين صورة وسمعة سيئة عنك.

- لا تطلق لنفسك العنان في العلن، حتى ولو لم يكن هناك سوى شاهد واحد. ولا ترو كيف تم العيب فيك وذمك، في ظروف أخرى، أو كيف تمت ملاحقتك ومطاردتك بغير حق لأنك ستساهم بهذه الطريقة في القدح، وسيكون هناك دائما مَنْ يكرر هذه الأقوال المشينة. وهنا وفي هذا المجال لا يمكن الأخذ بقول برنارد الحكيم: (اغفر للنوايا إذا لم تستطع الغفران للعمل). وقل إن الخطأ حصل صدفة، بسبب الطيش، أو أن الشر تم إيقاظه بصورة إرادية كي يخوض البعض تجربة الإغواء.

- قل كل ما تريد أمام الأشخاص المعروفين بالثرثرة، وأفض إليهم بصورة سرية، بعد أن تجعلهم يقسمون على أنهم لن يتكلموا عن ذلك لأي إنسان، بأن تأثيرك كبير جدًا على بعض الأقوياء، وأنك على اتصال مستمر مع البعض الآخر... إلخ. وبعيدا عن الأنظار، حرر رسائل إلى هؤلاء الكبار، ووقعها، وأبرزها لهؤلاء الثرثارين، ثم احرقها. وبالطريقة نفسها اخترع إجابات تشير إليها دون قصد، فيما بعد.

- إن الخطر الوحيد في حالات من هذا النوع، هو احتمال أن يكون الآخرون

قد سمعوا بغموض، وفهموا بطريقة سيئة، وأنهم قد يرددون وينشرون هذه الأمور أيضا بنفس الغموض، لذا يجب قراءة هذه الرسائل بصوت عالٍ وواضح، وأكِّد على أنك لم تؤذ أي إنسان، وأنك لهذا السبب وبسبب مجهوداتك تأمل في الحصول على ميدالية التاج الملكي، واذكر أمثلة مستوحاة من عندك لهذه المناسبة. وفي كل مرة تظهر أمام الجمهور تصرف بصورة لا تقبل الانتقاد، لأنه غالبا ما أدى خطأ واحد إلى تدمير سمعة ما بصورة نهائية.

– لا تقم أبدًا بعدة أمور في وقت واحد، لأن تجميع الأعمال في وقت واحد لا يؤدي إلى المجد، ويكفي أن تنجح بصورة رائعة في عمل واحد.. وأنا هنا أتكلم بناء على تجربة.

– من الملائم والمستحسن الثقة دائما بالمتحمسين، والأقوياء، والأقارب، فهذه الثقة تكون في موضعها.

– تظاهر بالتواضع، والبراءة، والألفة، والمزاج المعتدل. امدح، اشكر، وكن منفتحا مقبلا حتى مع الذين لم يقدموا أي شيء لك.

– في بداية توليك أي منصب لا تضن بتفكيرك أو بجهدك، ولا تقدم على أمر دون أن تكون واثقا من النجاح فيه ، لأنه بعد أن تترسخ سمعتك بشكل جيد، فإن كل شيء حتى الأخطاء، سيتحول لمصلحتك.

– إذا كنت منهمكا في قضية من صلب مهمتك، ارفض أي عمل آخر يمكن أن يحول جزءًا من اهتمامك.. إذ إن أي تأخير في واجبات عملك سيسبب لك الانتقاد. وإنه بالرغم من كبر وعظم ما أنجزته، بالإضافة إلى الهموم الكثيرة التي تكون قد أثقلت عليك، فإن البعض سيقول لك: إن ذلك يعود للعمل الإضافي الذي قبلته.

– عندما تبدأ في عمل ما لا تأخذ معك شريكًا أكفأ منك، وأكثر تجربة في هذا العمل. وإذا كنت مضطرًا لزيارة أحد ما، فلا تفعل ذلك بصحبة شخص يقيم معه علاقات جيدة أكثر منك. وإذا ما كان عليك التخلي عن مهمة معينة، تجنب أن يكون خلفاؤك أكثر منك كفاءة بصورة ملحوظة.

– دوّن عندك المراحل الناجحة التي مرت بها مؤسستك دون أن تلقي بالا للحساد الذين سيوجهون إليك الانتقادات فورًا، لأن الكتابة، سواء كانت صادقة أو مجاملة، ستحمل لأجيال المستقبل كل مظاهر الحقيقة، في حين أن الكلام

الشفهي يموت مع أولئك الذين يتفوهون به، أو حتى قبلهم.

*** كيف تصنع لنفسك سمعة وشهرة عالم ؟**

- اجمع في مجلد واحد كل المعلومات التاريخية التي يمكنك الحصول عليها، ثم اقرأها كل شهر، وأعد قراءتها في أوقات فراغك. وبهذه الطريقة ستتكون لديك رؤية إجمالية عن تاريخ العالم، وتستطيع إظهار معارفك وقت الحاجة.

- حضر، مسبقا، سلسلة من الصيغ للإجابة، والتحية، والمبادرة بالكلام، أو لمواجهة كل ما هو غير متوقع بصفة عامة.

- هناك البعض ممن يتذلل حتى أقصى حد في سبيل أن يكبر، وفي سبيل البرهان على أن تميزه وما وصل إليه يعود إلى ثروته وإلى عبقريته وحدها، وليس إلى جهده أو عمله. هذا الصنف من الناس يميل غالبا إلى التقليل من شأن نفسه، ويبالغ في التواضع لدرجة الظهور بمظهر الضعيف والمتردد، ولذا عليك عدم قبول هذا السلوك إلا من جانب رجال الدين فقط[1].

- لا تظهر كل قدراتك واحتفظ دائما بقوى احتياطية، حتى لا يستطيع أحد تقييم حدود قدراتك.

- عندما لا تستطيع استخدام من حولك للتدخل في أمر ما، أو لإنزال عقوبة بشخص معين، تجنب الاشتراك بصورة مباشرة في مثل هذه الأعمال، واشغل نفسك بمهام أكبر.

- لا تقحم نفسك في مناقشات تتعارض فيها عدة آراء إلا إذا كنت متأكدًا من أنك على حق، وأنك تستطيع إثبات ذلك.

- عليك بدعوة من هم في خدمتك لأي احتفال تقيمه، لأن هذه الفئة من العوام ثرثارة جدًّا، وهي التي تجمّل أو تشوّه السمعة الشخصية. لذا لابد من إشباع هؤلاء الخدم كي لا يفكروا إطلاقا في سرقتك ، وللسبب نفسه عامل المزين ومن يؤدون لك أقل الخدمات بصورة أليفة.

---

(١) يوضح هذا الرأي تلك النظرة التي كان ينظرها الناس وقتها إلى رجال الدين، والصراع بين الكنيسة ورجال السياسة.

◆ كيف تدير وقتك أثناء العمل ؟ ◆

- نَحِّ جانبا القضايا غير المهمة أو البسيطة الأهمية، واهتم بالقضايا الأخرى بحسب توزيع للوقت لا تتجاوزه بأي حال من الأحوال، وإذا كانت قضية ما ذات أهمية قليلة فلا تعطها إلا بعض الوقت.

- لا تأخذ وقتا أكثر من اللازم لتسوية الأشياء بشكل جيد.

- إذا كنت متعبا من قضية ما ، فلا تلحّ على نفسك، ولكن نشط نفسك بمتعة شريفة، ومارس الرياضة. وستقوم بإنجازها فيما بعد مع القضايا الأخرى، بسرعة وبدون جهد. وأمامك حل آخر: أن تنتقل إلى قضية أخرى يمكن أن تسوَّى بسهولة.

- قسِّم القضايا التي تتطلب عدة أيام من العمل إلى أجزاء، وسوِّها واحدة واحدة.

- لا تشغل بالك بتلك المسائل التي لا تحقق لك المجد، أو تجلب لك المال، والتي تحتاج إلى كثير من الجهد.

- لا تلزم نفسك أبدًا بقضايا لا تخدمك بشيء، وتأخذ الكثير من وقتك، لمجرد أن تسر شخصا ما.

- لا تتعامل أبدًا مع الحرفيين بصورة شخصية، ولا تهتم بتدبير الأمور المنزلية، أو الحدائق، أو أعمال البناء، لأن هذه الأمور تحتاج إلى جهد كبير، وتخلق لك هموما.

◆ اكتساب الاحترام ◆

- احرص على أن تكون تصرفاتك متلائمة مع وضعك ومكانتك.

- فإذا ما كنت كاهنا فلا تتدخل في الحرب، وإذا ما كنت نبيلا لا تتدخل في التنجيم(١) ، وإذا ما كنت رجل دين لا تتدخل في الطب، وإذا ما كنت

(١) كان المنجمون في ذلك الوقت، في الشرق والغرب على السواء، لهم مكانة بارزة عند الملوك، وكانوا أحيانا يستشيرونهم في كل صغيرة وكبيرة، ويتفاءلون بآرائهم.

محاميا لا تدخل في مبارزة مع أحد. فكل وضع له ما يلائمه.

- لا تقطع وعودًا على نفسك بسهولة، ولا تعطِ إجازات لمن يعملون عندك بسهولة، كن صعبا في بسط أساريرك لأحد، بطيئًا في إعطاء رأيك، ولكن انتبه: عندما تعطي رأيا لا تغيره.

- لا تجعل نظراتك كأنك تتفحص محدثك، ولا تلمس أنفك، ولا تحكه أبدًا، وتجنب إظهار وجهك متجهمًا.

- لتكن حركاتك قليلة ، ورأسك مرتفعا عاليا، وكلمتك متزنة، وامش بخطوات محسوبة، وحافظ على وضعية لائقة.

- لا تفض لإنسان بميولك ومزاجك، وبما تكرهه، ولا تعترف له بخجلك.

لا تتولّ بنفسك معالجة القضايا التافهة، بل اترك مخدوميك يهتمون بها ولا تتكلم عنها أبدًا.

- لا تدع أحدًا يشاهد استيقاظك، وذهابك إلى الفراش، أو وجباتك.

- لا تُفْرط في عدد أصدقائك، وليكن لك أصدقاء قلائل، تراهم على فترات متباعدة حتى لا تفقد الاحترام المتوجب عليك نحوهم.

- احرص على أن تختار دائما مكان محادثاتك.

- تجنب كل تغيير مفاجئ في عاداتك، حتى وإن كان ذلك من أجل تحسينها. نفس الشيء ينطبق على نوعية ملابسك الجيدة، أو أسلوب حياتك اليومية.

- امدح ولُمْ دون تطرف، وليكن مدحك ولومك بناء على دراسة، وإلا فإنك ستقع في وضع متطرف أو مفرط.

- لا تفرط في التعبير عن مشاعر حيوية مثل الفرح والاندهاش.. .. إلخ، ولكن اجعل ذلك بصورة استثنائية، وحتى في المودة والألفة مع الأصدقاء، أظهر تقواك بالطريقة نفسها.

- لا تشتك من أحد، ولا تتهم أحدًا، حتى عندما تكون واثقا من نفسك.

- لا تفرض قانونا إلا في أضيق الحدود، ولا تترك نفسك للغضب بسهولة، لأنك ستبدو رجلا خفيفا غير متزن إذا ما هدأت بسهولة.

- إذا كان يتوجب عليك الكلام أمام الناس، ألق خطابا كنت قد حضرته، ومكتوبا مسبقا.

◆ عندما تقرأ أو تكتب ◆

- إذا كان يتوجب عليك الكتابة في مكان مزدحم، ضع أمامك، وبشكل عمودي، ورقة مكتوبة، كما لو كنت تقوم بإعادة كتابتها، ولتكن واضحة للجميع. وضع الأوراق التي تكتب عليها فعلا على وجهها الآخر، وغطها، ولا تترك أي شيء مرئي منها سوى سطر من صفحة تكون قد نسخت عليها عدة أسطر يتمكن كل من يمر بجوارك قراءتها. أما الأوراق التي قمت بكتابتها فخبئها تحت كتاب، أو تحت ورقة أخرى، أو خلف الورقة الموضوعة بشكل عمودي.

- إذا فاجأك شخص وأنت تقرأ، قلِّبْ عدة صفحات بسرعة حتى لا يتعرف أحد على ما تقرأه أو الموضوعات التي تهتم بها. ولكن من المفضل أن يكون أمامك مجموعة من الكتب، حتى لا يستطيع ذلك الذي يراقبك معرفة أي كتاب تقرأ. وإذا جاء شخص ما وأنت تقرأ، أو تكتب رسالة، وشعرت أنه يرتاب في ما تعمله، فقم بطرح سؤال عليه لا يتعلق بالموضوع الذي تقرأ أو تكتب فيه، كما لو كان هذا السؤال على علاقة بما تكتب أو تقرأ. وإذا ما كنت تكتب لشخص طلب منك نصيحة في موضوع ما فاسأل هذا الضيف غير المتوقع: (كيف سأجيب على هذا السؤال المطروح عليَّ، ولابد لك من الحذر والحكمة). يمكن أيضا أن تشغله بسؤاله عن آخر الأنباء، بحجة أنك ستتكلم عنها في رسالتك كما ستدعي له ذلك.

- تصرف بنفس هذه المبادئ عندما تقوم بإجراء حسابات.

- احرص دائما على أن تكتب الوثائق التي تريد إبقاءها سرية بنفسك إلا إذا كنت تريد أن تستخدم لغة مشفرة، وأيضا عليك عندما تكتب الوثائق أن تستخدم لغة مقروءة ومفهومة من الجميع مثل تلك التي يقترحها (ترنتيهام) في كتابه (البوليجرافيا) وهذه هي الطريقة إذا كنت لا تريد كتابة الوثائق بنفسك. لأن لغة الرموز التي يقدمها نص غير مقروء تثير الشك والريبة.

- إن الحل الوحيد إذن هو أن تقوم بوضع رموزها بنفسك.

◆ الهدايا والمنح ◆

- قدم بسخاء ما لا يكلفك في الظاهر، أي شيء، مثل امتيازات لا يستطيع المستفيد منها استخدامها إطلاقا. إن المعلم لا يجب أن يحرم تلميذه من الأمل بأنه يستطيع تعميق معرفته حول موضوع ما. وعندما يقوم أب بتقديم هدايا لابنه فإن عليه أن يشعره أن هذا ليس سوى شيء قليل، وأنه يستطيع الحصول على أكثر من ذلك، هذا المبدأ نفسه يجب تطبيقه على العلاقات بين السادة ومرؤوسيهم.

- أيضا ، إذا قام السيد بإعطاء أحدهم هبة بملكية ما، فإن على الخادم، وكي يبقى تابعا لإرادة سيده، أن يظل بحاجة إليه من أجل الخشب، والماء، والطاحون مثلا.

- إذا ما كان هناك عقد بين السيد والتابع، فيجب إضافة بند على هذا العقد يسمح للسيد بأن يفسخ هذا العقد بإرادته هو فقط.

- وإذا كان أحدهم جديرا بوظيفة عامة ويريد التهرب منها في اللحظة التي تعهد بها إليه، فلا تقبل رفضه لهذه الوظيفة إلا إذا عبر عن ذلك علانية، وإلا فإن البعض سيظن إذا عملت العكس بأن تأييدك له لم يكن مكافأة على جدارته. وحتى لا يستطيع التهرب من ذلك اجعله يبدأ وظيفته في اليوم نفسه الذي تعهد فيها إليه ثم اترك المدينة مباشرة، بهذه الطريقة سيكون مجبرا على الكتابة إليك ليعلمك برفضه، وبانتظار جوابك سيكون قد بدأ في ممارسة وظائفه.

- امنح هبات لا تكلفك شيئا، وقم مثلا بتخفيف عقوبات مستحقة، أو تراجع عن فرض ضريبة جديدة، كنت على غرار جارك، مستعدًا لفرضها بالرغم من صفتها الجائرة، واجعل ذلك على شكل هدية تقدمها لهم.

- إن الناس الذين تستخدمهم في أعمالك لا يجب أن يكون عندهم إطلاقا نزعة حب الرفاهية، أو السلاح، أو المجوهرات، أو الخيل، لأنك بهذا الشكل تستطيع مكافأتهم بسخاء دون أن يكلف ذلك خزينتك شيئا كبيرا.

- ولتكن عندك أساليب جيدة في تقديم العطاء، فمثلا إذا أردت تقديم بندقية

كهدية، تقوم مسبقا بتنظيم مباراة في الرماية تكافئ فيها المنتصر، سواء كنت متأكدًا من فوزه، وسواء كنت تريد الاستسلام للحظ.

- إذا كنت تريد اكتساب خدمات شخص ما، فلا تقطع له وعودا؛ لأنه سيتراجع عن ذلك، باعتبار أن إطلاق الوعود هو في الوقت نفسه أسلوب للتنصل من العطاء، ولدفع أجر الناس بالكلمات المعسولة فقط.

- إذا تباهى أحدهم أمام الناس بثروته، شجع الذين يستمعون إليه ليتوسلوا إليه ويطلبوا منها عطاءً.

- تجنب التراجع عن قرارات أسلافك ووعودهم، لأنهم كانوا في وضع يسمح لهم بتوقع أمور تخفى عليك الآن.

- تجنب أيضا منح امتيازات دائمة دون حساب، لأنه في اليوم الذي تكون فيه في حاجة إلى منح شخص آخر لن تستطيع ذلك.

- لا تظهر نفسك وكأنك تغدق في عطاياك كي يعترف إليك الناس بالجميل، واحذر من إشعار الآخرين بالثمن المتوجب عليهم.

- راقب بدقة الذين حولك، ومن هو في حاجة إلى شيء ما، وماذا ينقصه، وما هو وضعه.

- إذا قمت بمساعدة إنسان لا تقل ذلك للآخرين، لأنك بذلك ستهينه، وستبدو وكأنك تلومه على قبوله لمساعدتك. وإذا ما كان لديك النية للكلام عن هذا الأمر، فقل بأن المقصود هو دين له عليك، وأن هذا التصرف ليس مكافأة، ولا اعترافا بالجميل. وإذا ما تلقيت هدية من إنسان ما مهما كانت صغيرة، فاحرص على أن تبدو ممتنا له.

◆ الطلب ◆

- احرص على ألا تؤدي طلباتك لكثرتها إلى إفلاس من يصنع الخير معك، ولا تطلب منه بذل جهود هامة جدًا، ومن الأفضل أن تلمح لصديقك بأنك في وضع الحاجة، فإن ما لا تحصل عليه بهذا الأسلوب لن تحصل عليه أبدًا بطلبات ملحّة. وعبّر له عن درجة اعترافك له بمستوى الهبات التي قدمها إليك كي يفهم

أنك ستكون دائما في حاجة إلى مساعدته.

- إذا كنت في حاجة إلى تقديم التماس لشيء هام، تكلم عن قضايا أخرى، ثم أوضح له في ثنايا الحديث، بأن أمرًا محددًا هو موضوع رغباتك.

- اقترب من الكبار بحذر، لأنهم يتخيلون بسهولة أنك تحاول قيادتهم أو السيطرة عليهم. استخدم وسطاء، واختر لهذا الهدف أناسا قريبين منهم. مثلا دع ابنا يتدخل لدى والده إن لم تكن مصالحك متعارضة مع مصالحه.

- إن أفضل لحظة لتقديم طلب ما هي تلك اللحظة التي يكون فيها الشخص الآخر جيد المزاج. مثل أن تقدمه في يوم عيد، أو بعد وجبة طعام، بشرط ألا يكون في طريقه للنوم.

- تجنب طلب أي شيء من شخص غارق في عاصفة في المشكلات أو القضايا، أو مرهقا من التعب. تجنب كذلك طلب عدة أمور في وقت واحد.

- إذا كنت تعمل من أجل مصالح شخص ما، فتصرف معه أمام الناس كغريب، فلا يكن لك معه إلا محادثات قصيرة ونادرة، كي يظهر أنك تعمل بدافع الحب للخير العام وليس من أجل المصالح الخاصة.

- كَيِّفْ طرقك في العمل على حسب الشخص الذي تتعامل معه . تكلم عن الأرباح والخسائر مع البخلاء، وعن الدِّيْن مع الأتقياء، وعن النجاح والتواضع مع الشباب.

- لا تطلب من السيد هبة أو امتيازا يستغرق الحصول عليها وقتا طويلا.

- اكتب الطلب بنفسك ثم مرره إلى السيد في اللحظة المناسبة كي يوقع عليه.

- لا تطلب من أي إنسان شيئًا نادرًا عزيزا عليه، خاصة إذا كان هذا الشيء لم يكن لينفعك؛ لأنه إذا رفض سيعتقد أنه أساء إليك، وسيحسب لذلك حسابا، على اعتبار أننا نكره الذي جرحنا مشاعره. وإذا أعطاك هذا الشيء ، فإنه سيفكر في التخلص منك لأنك ملتمس مزعج.

- ومما أنه من الأمور المهينة والمذلة أن نواجه بالرفض، فلا تطلب شيئا لستَ واثقا من الحصول عليه، لذا من الأفضل ألا تطلب أي شيء بطريقة مباشرة، ولكن بالإيحاء بما أنت في حاجة إليه.

- إذا كنت ترغب في شيء، فلا تجعل أحدًا يعرف ذلك قبل الحصول عليه. وعليك أن تظهر بأن ليس لك أي أمل من هذه الناحية، والتصريح من جهة أخرى بأن شخصا آخر حصل عليه، وستذهب في كلامك لحد تهنئته.

- إذا كان هناك إنسان يسعى للحصول على شرف تطمح أنت إليه، أرسل إليه مبعوثًا سريا ليقنعه بالعدول عن ذلك باسم الصداقة، وليبين له الصعوبات التي سيواجهها.

◆ تقديم النصيحة ◆

- ابدأ كلامك بالحديث عن أي شيء، ثم انتقل إلى الأفعال التي تريد عدم الموافقة عليها.. ارسم لها صورة هزلية، ثم انتقل إلى انتقادها ولكن بعد إدخال الكثير من التفاصيل المتباينة؛ حتى لا يشعر الإنسان الذي توجه له النصح أنه معنيٌّ مباشرة. ورتب أمورك بحيث يستمع إليك بطيب خاطر، ودون أن يغضب، وأضف لحديثك بعض الفكاهة، وإذا ما رأيته يحزن لذلك اسأله عن السبب. وأخيرا، وبعد أن تمزج ذلك بمسائل أخرى، تكلم بصورة عامة عن المعالجات الممكنة لوضع من هذا النوع.

- إذا عرف أحد أنك تشك فيه لعيب ما ، فاعهد إليه، بطريقة سرية، بأمر تكون المخاطر فيه معدومة بالنسبة إليك، أو غير مهم لك، فهو، وحتى يبعد عن نفسه أي شك، سيبذل أقصى جهده لخدمتك. ولهذا، فإنه ليس سيئًا أن تجعل الناس يشعرون أن لديك شكوكا حولهم من وقت لآخر - فالشباب البالغين يميلون إلى الغش والطيش والتهور، لذا فإن انتقادك لتصرفاتهم في شكل لوم لا يمكن إلا أن يزيد من اتجاهاتهم السيئة.. ولذا، فإنه من الأفضل انتظار إعلان ندمهم، أو تعبهم من سلوكهم السيئ، ولكن إذا استطعت إعادتهم إلى الطريق القويم، فلا تنتقل فجأة من القسوة إلى الوداعة. وكن مباشرًا وعنيفا مع أصحاب الطباع الباردة، فبهذا الشكل تؤثر فيهم. أما أصحاب الطباع الحارة فتصرف معهم بنعومة وكياسة.

◆ تجنب المفاجأة ◆

- لا ينبغي الاعتقاد كثيرا بأقوال الحكماء؛ لأنهم يقللون بصورة مبالغ فيها من خصالهم الكبرى، ويرفعون كثيرا من سمعة الآخرين. وهم لن يعترفوا لك أبدًا بأن شخصا ما تحدث بسوء عنك أمامهم، كما أنهم في الوقت نفسه لن يطلبوا منك الحذر، ولن يقولوا لك عيوب هذا الشخص أو ذاك. والأمر نفسه بالنسبة للكهنة الذين يمتدحون رعاياهم، لأنهم لا يستطيعون أن يفعلوا عكس ذلك، والأمر نفسه بالنسبة للآباء الذين يشيدون بأبنائهم.

- إذا كنت تخاف من أن هناك أحدًا ما سيعمد إلى إثارة القلاقل أو الشكاوى ضدك في غيابك، أو أي أمر من هذا النوع، فقم باصطحابه معك عندما تقوم بنزهة، أو عندما تذهب للصيد، ودعه يجلس دائما بجانبك على المائدة، وفي الاجتماعات.. إلخ. وتصرف بالطريقة نفسها إذا كنت تريد تجنب أن تستفيد الدول المجاورة من إحدى رحلاتك كي تعلن عليك الحرب. فاصطحب معك أعيان هذه الدولة كما لو كانوا حلفاءك المخلصين جدا، ولكن مع ضرورة الانتباه لمرافقتهم بفريق صغير مسلح تكون واثقا منه.

◆ صحتك .. كنزك ◆

- احرص على ألا تفرط في غذائك سواء من ناحية النوعية أو الكمية، وتصرف بالطريقة نفسها نحو ملابسك فيما يتعلق بالحر أو البرد.. تجنب أيضا أن تفرط في العمل أو في النوم.

- يجب أن يكون مسكنك جيد التهوية، لكن دون أن يكون سقفه عاليا.

- إن عسر الهضم والإسهال، والتي هي مصادر أمراض، وكذلك الحركة والراحة يجب أن تكون معتدلة، والعواطف مكبوحة.

- لا تسكن بالقرب من مستنقع ولا بالقرب من مجرى ماء، ويجب أن تكون نوافذ غرفتك موجهة ناحية الشمال الشرقي، بدلا من الشمال الغربي.

- لا تشغل ذهنك أكثر من ساعتين في قضية هامة، بل توقف من وقت لآخر كي تريح ذهنك.
- تناول غذاء يسهل الحصول عليه ويمكن إيجاده في كل المناطق.
- عاشر زوجتك باعتدال مهما تكن حالتك، وذلك بحسب مطالب طبيعتك.

◆ إياك أن تجلب كره الآخرين لك ◆

- ارفض الشهادة في قضية إذا كانت شهادتك سوف تغضب أحد الأطراف[1].
- لا تعط معلومات عن إنسان لا ينتمي إلى أصل عريق، أو إذا كان من أصل وضيع.
- إذا أطلقت انتقادًا في أثناء محادثة، فتابع كلامك كأن شيئًا لم يكن.
- لا تظهر لأي إنسان أي ود خاص بحضور أشخاص آخرين، لأنهم يمكن أن يتصوروا أنك تحتقرهم، ويمكن أن يكرهوك بهذا الشكل.
- تجنب الصعود والارتقاء السريع والبراق جدًّا، فالأنظار يجب أن تعتاد ضوءًا مليئًا بالحيوية ومعتدلا، وإلا فإنها ستغلق إذا بهرها.

لا تعارض ما يعجب الشعب، سواء أكان عبقريًا أم تقليديا، وإذا كان عليك الاعتراف بأنك صانع أي عمل جريء، فلا تعرض نفسك للأحقاد التي يثيرها هذا الإعلان بسرعة، ولا تجعل سلوكك يدل على أنك تأسف على شيء، أو أنك فخور بما قمت به عن طريق السخرية بضحاياك، لأن ذلك يؤدي إلى زيادة الحقد ضدك، وأفضل حل هنا هو غيابك بعض الوقت دون أن تظهر.

- إذا ما طبقت قوانين معينة، فاحرص على أن تساوي بين الجميع، وثق بالفضيلة.
- قدم كشفا بأعمالك كي تسر الشعب، ولكن يجب أن يكون ذلك بعد إنجازها كي تتجنب الاعتراضات.

---

(١) كتمان الشهادة جريمة لا تغتفر، ولها عقابها الشديد في الدنيا والآخرة.

- ولتكن قاعدتك العامة ، ألا تدع نفسك تتكلم بخفة، سواء بالخير أو بالشر، عن أي شخص كان، ولا ترو أعمال أي شخص كان سواء أكانت سيئة أم حسنة، لأنه يمكن أن يكون هناك في أثناء حديثك صديق للشخص الذي تتكلم عنه، والذي يمكن أن ينقل حديثك له بعد المبالغة فيه، وبالطبع فإن هذا الإنسان الذي تتكلم عنه سوف يشعر بأنه مجروح منك. أما إذا كان الإنسان الموجود معك عدوًّا للشخص الذي تتحدث عنه بالخير، فإنك ستكتسب عداوته بحديثك.

- نعم، إنه من المهم معرفة كل شيء وسماع كل شيء، وأن يكون لك جواسيس في كل مكان.. ولكن يجب أن تقوم بذلك بحذر؛ لأنه من المهين لأي إنسان أن يشعر أنه مراقب، إذن عليك التجسس على الآخرين دون أن يشعر بك أحد.

- أيضًا يجب عليك تجنب التدليل على كثير من النبل والشهامة، إذا ما جاز القول، لأن البعض سيرى في ذلك احتقارًا، ولا سيما إذا قلت - مثلا - بأنك لا تطلب شيئا من أي إنسان، وأن لديك كل ما يلزم من جنود..إلخ.

- من الأفضل لك عدم الادعاء أمام الآخرين بأنك تمارس سياسة أفضل من أسلافك، وأن قوانينك ستكون أكثر حزما وحيوية، وأنك ستكسب أصدقاءهم. كذلك لا تتكلم عن مشاريعك إلا تلك التي تعرف مسبقا أنها ستلقى التأييد.

- أما مع أتباعك، فلا تعط لأحد - مهما كان - امتيازا وتفضيلا عن الآخرين، ولا تتظاهر بأنك تشارك سلطتك مع أحد منهم، خاصة إذاكان الآخرون يمقتونه.

- لا تميز أحدًا من أتباعك بمكافآت خاصة، إلا إذا اعترف الجميع بتميزه، لأن ذلك سيكون سببا للمنافسة بين الجميع.

- إذا كان يتوجب عليك ممارسة بعض القسوة على أتباعك فألق بتبعة ذلك على الآخرين، وتظاهر كما لو لم تكن مَنْ أعطى الأوامر. بذلك يمكنك التخفيف من آلامهم إذا قدم البعض منهم للشكوى إليك، ويمكنك أن تلقى المسؤولية على أولئك الذين أخذوا المبادرة بمثل هذا القدر من القسوة، ففي حالة إهمال النظام في الجيش مثلا، اعهد إلى ضباطك بمسألة إعادة النظام عن

طريق الطلب منهم أن يأمروا الجنود بالقيام بمهمات شاقة دون أن تضع حدا لقسوتهم، فإنهم لكي يحوزوا على رضاك، سيلجأون إلى قسوة مفرطة، مفسحين المجال بذلك أمامك لتمارس طيبتك تجاه الجنود الذين يلجأون إليك.

- كل أولئك الذين تستحق أعمالهم أن يفخروا بها، اتركهم يظهرون ذلك دون أن تطالب بنصيبك من ذلك، فالفخر سيزيد بالنسبة لك إذا ترفعت عن الغيرة.

- انسب نجاحاتك إلى شخص آخر يكون قد أعانك بوعيه ونصائحه، ولا يجوز أن تغتر بنجاحك، إذ عليك المحافظة على نفس أسلوب الكلام، ونفس عادات المائدة، ونفس الملابس. وإذا كان عليك تغيير أي شيء فليكن ذلك لسبب محدد تماما.

- إذا كان هناك إنسان ما عليك معاقبته، فاستدرجه لأن يعترف هو بأنه مذنب، أو اطلب من شخص آخر محاكمته بعد أن تكون قد أوصيته سرًّا بالنطق بحكم قاسٍ، حكم يتسنى لك تخفيفه بعد ذلك.

- تجنب إهانة خصمك عند هزيمته، ولا تتحداه، واكتف بواقعية انتصارك دون أن تحتفل به بالكلمات أو الحركات.

- إذا ما كان عليك إصدار قرار ذي شأن كبير، الجأ إلى صيغة غامضة وتكلم بصوت فيه نبرة خطورة لمصلحة وجهة النظر التي تريد الدفاع عنها، ثم تظاهر بأنك تتوصل لمصلحة وجهة النظر المعادية، أو احتفظ باستنتاجاتك.

- إذا ما طلب منك التدخل في قضية ما لمصلحة أحد، فاقبل ذلك، ولكن برهن في الوقت نفسه على أن هذه القضية لا تخصك وحدك، وأنك لا تمتلك سلطة على نتيجتها النهائية التي قد تكون مناقضة لما تتمناه.

- إذا كان عليك الانتقام من إنسان ما، استخدم طرفا ثانيا، أو قم بذلك بصورة سرية وليس في العلن.

- أجبر المهان على مسامحة مَنْ أهانه، واسمح لهذا الأخير بالهرب بسرعة وفي سرية.

- إذا ما كان هناك أقرباء لك أطراف في قضية ما، فلا تنحز لهذا الطرف أو ذاك، واعتذر للطرفين بكثرة مشاغلك، فبهذه الطريقة لن تصور أحد أنك خنته،

لأنك لن تكون قد فضلت أحدًا على آخر.

- لا يجب أن تسمح لأحد بمجرد أن يتخيل أنك شاركت مع من هم أعلى منك في إصدار قوانين جديدة، وخاصة إذا كانت هذه القوانين لا تحظى بالقبول أو الشعبية.

- تجنب أن تظهر كثيرا مع ذلك الذي يمتلك السلطة، وانقل إليه دون أن يرجوك، القصص التي لا أهمية لها، ولا تتباه أمام أحد بصداقتك له، فإنه إذا ما لاحظ أحد تأثيرك على الكبار فإنك ستكون مسئولا ومشاركا معهم في أعمالهم السيئة.. إذن.. احرص على أن يستمع سيدك لنصائحك، واستمع لتعليقاته، ولكن لا تقم بتغييرات سياسية كبرى إلا عندما تكون غائبا وفي مكان آخر.

- إذا ما كنت في جلسة، وقام أحد بمدح عائلتك وأسلافك، غيِّر موضوع الحديث.. عندها سيلاحظ الآخرون تواضعك، والحسد لن ينال من مجدك. أما إذا بدوت سعيدا بمدحه فإنك ستثير حسد الآخرين.

- لا تدافع عن الأعمال الغوغائية، وإذا ما تمت إقالتك من وظيفتك، عبّر عن رضاك، وعن اعترافك بالجميل نحو هذا الذي أعاد إليك السكينة التي كنت تطلبها.

- ابحث عن الحجج التي تقنع مستمعيك بصورة أفضل، كي لا تُوَجَّه لك انتقادات عند سقوطك، ولا تحاول - بشكل مكشوف واضح - معرفة ما إذا كان إنسان قد حاربك، ومن سانده في صراعه ضدك، ولا تتكلم أبدًا عن عدوّك، مع حرصك على معرفة كل أسراره.

- لا تقابل أبدًا - في العلن - أولئك الناس المكروهين، ولا تتبع نصائحهم.

- لا ينبغي أن يعرف أحد أنك كنت في مجلس يتصور البعض أنه اتخذت فيه قرارات شديدة القسوة، حتى وإن كانت هذه القرارات ضد أناس عديمي الأهمية، إذ يمكن أن يعتقد البعض أنك كنت المبادر بهذه القرارات بطريقة أو بأخرى.

- تجنب الإشارة إلى أعمال أي إنسان، ولا تنتقدها، وتجنب النظر بإمعان إلى الطريقة التي يؤدي بها الآخرون وظائفهم.

- لا تذهب دون أن تكون مدعوًّا ، إلى الأماكن والمكاتب، أو إلى أي مكان

يُعتقد فيه أنك موجود للتجسس على الآخرين.

- احرص على ألا يجرح سلوكك أحدًا، وإذا ما جاء إنسان استقبله بصورة ودية، مهما كانت انشغالاتك، ودعه يشعر أنك ترحب به، ولكن عليه أن يعذرك اليوم وأن يعود مرة ثانية. وإذا أردت العيش في سلام وطمأنينة فإن عليك التخلي عن كثير من الرفاهية.

- في كل مرة يروى فيها أمامك حديث عن أشياء مزيفة لا أصل لها.. دع الآخرين يتكلمون دون أن تقاطعهم، إذ من غير المجدي أن تثبت أنك مُطَّلع أكثر منهم.

- لا تستقبل أحدًا بمزاح ، أو بكلمة مرحة ، إذ يمكن أن يشعره ذلك بقلة تقدير منك له، أو شكل من أشكال الهزء والسخرية.

- إذا ما تحمل أحد فشلا معينا، لا تهزأ منه، بل على العكس، اعمل على إيجاد الأعذار له، واجعله يتكلم ، وساعده.

- لا تستخدم صلاحياتك كقاضٍ لإعطاء أوامر إلى أناس أحرار وليسوا رعايا[1].

◆ كيف تنتزع الأسرار ؟ ◆

- لا تأنف من التحادث مع أناس من أصل وضيع، لأن لطفك وتواضعك يبهرهم، وإذا ما قدمت لهم، بالإضافة إلى ذلك، القليل من الذهب، فإنهم سيقولون لك كل ما تريده.

- تصرف بنفس الأسلوب مع الخدم، لكن أعلم أنك بتصرفك هذا تخوض مخاطر كبرى.

- عليك أن توصي الخدم الذين يخونون سيدهم أن يحترسوا ويخشى بعضهم البعض، واحترم ، بدقة، تعهداتك تجاههم كي يحافظوا على ثقتهم بك، ولا تستخدم المعلومات التي يزودونك بها بصورة فورية.

---

(١) الأحرار هم النبلاء والإقطاعيون، أما الرعايا فهم باقي الشعب المطحونون.. هذه هي المساواة والعدل وقتها.

◆ معرفة النوايا ◆

- استمع أولاً إلى الأسباب والمبررات التي يسوقها ذلك الذي يدافع عن قضية ما. ثم تمعّن في ما إذا كانت هذه الأسباب وتلك المبررات جيدة، ثم انظر كيف يتصرف هذا الإنسان عادة، وإذا ما كان هناك ما يدعو للشك به في هذه الحالة الخاصة. وهكذا فإن الإنسان الذي يبدأ الكلام بحماسة، مع أنه لا يقوم بذلك أبدًا، فإنه لا يعبر إطلاقًا عن رأيه الشخصي. كذلك الإنسان الذي يغير رأيه فجأة، ويبدأ في الدفاع بقوة عما كان يهاجمه منذ قليل، فهذا شخص قد تم شراؤه على ما يبدو. وإذا ما ظل على مواقفه بعد اقتناعه بخطئه، فهذا معناه أنه لا يعمل من أجل الأسباب التي ادعاها.
- لكي تكتشف حقيقة مواقفه، أرسل له شخصا آخر ليصبح صديقه، وليستجوبه تحت طابع السرية، فهو سيبوح له بحقيقة أخرى.

◆ لا تهن الآخرين ◆

- لا تبدو شديد القسوة بشكل مفاجئ تجاه أولئك التابعين لك، دون أن تظهر في الآن نفسه شديد القرب، فبمضاعفة الآلام والمكافآت، فإنك ستمزج الحب مع الخشية.
- ابدأ دائما بشيء جديد يمكن أن يطغى على الآخرين، حتى على الأمير، وحاول أن تجد مقلدين لك، فعندها لن تكون الوحيد الذي يثير الغيرة والحسد.
- إذا ظن البعض أنك وراء صدور القرارات غير الشعبية، امنح الشعب علنا بعض الهدايا، مثل تخفيف الضرائب، والعفو عن محكوم عليهم .. إلخ.. وبرهن على تواضعك مع أولئك الذين تحبهم الجماهير.
- إذا ما قررت مسبقا اتباع سياسة جديدة، التق مسبقا، وبشكل سري، بأحد رجال الدين، وضع نفسك إلى جانبه كي يكون هو الذي يقترح عليك الأمور علنا، ويشجعك عليها أو حتى يردعك.

- وإذا ما كانت لديك نية إصدار قوانين جديدة، أثبت ضرورة هذه القوانين للحكماء، وحضر المشروع معهم، أو قم ، بكل بساطة، بإثارة الضجة أنك استشرتهم، واستمعت إليهم. ثم، دون أن تأخذ نصائحهم بعين الاعتبار، اتخذ القرارات التي تناسبك.

- لا تمنح أي إنسان زوجة أو خادما.. إلخ، ولا تحاول أبدًا إقناع إنسان مهما كان تغيير نمط حياته، ولا تكن أبدًا وصيا منفذًا لأي وصية.

- إذا كنت موجودًا في الوقت الذي يوجه فيه أحدهم أوامره إلى خدمه، ابق موجودًا، ولكن دون أن تتدخل بموافقتك أو بمعارضتك لما يقول.

- عندما تصل إلى بلد جديد، لا تقع في الخطأ الشائع الذي يقع فيه معظم الناس، والذي يقتصر على ترديد حسنات الناس وعادات البلاد التي تركتها.

- حتى لو كنت في قرارة نفسك ذا رأي مغاير، فإن عليك اتباع موقف التساهل في قضايا الضمير، كما في كل القضايا الأخرى، ولكن بشر دائما بالحزم[(١)]

- لا تدَّع إطلاقا أمام الآخرين بأن لك تأثيرا على رؤسائك، ولا تتظاهر بالحصول على تأييدهم، كذلك لا تسترسل بإفشاء أسرارك الشخصية، وبأن تقول ما تفكر فيه عن هذا وعن ذاك.

- مهما كانت وظيفتك، فإنه بإمكانك الحصول على رضا رئيسك إذا جعلته يستفيد من بعض المنافع.

- عليك البرهان دائما عن بعض التسامح مع مرؤوسيك، على الأقل ظاهريا، بدلا من أن تبدي الكثير من القسوة تجاههم.

- إذا ما تناهى إلى سمعك أن صديقا غير متأكد من صداقته لك تكلم عنك بسوء، فلا تنتقده لذلك، لأنك ستجعل نفسك عدوا لشخص لم يكن أمره يهمك حتى الآن.

- لا تحاول أبدًا معرفة أسرار الكبار، لأنه في حالة تفشي السر وانتشاره، فإن الشكوك ستحوم حولك.

---

(١) لو طبق الناس في حياتهم العامة هذا الرأي لتحول المجتمع إلى غابة موحشة.

- إذا ما قام أحدهم بزيارتك ، سواء لمجاملتك، أو لتهنئتك، أو للسلام عليك..إلخ، فإن عليك القيام بخطوة تحبب، ورد المجاملة بهذه المناسبة.

- إذا لم يحترم ؛ أحدهم وعوده معك، فلا تنتقده لذلك، كي لا تكسب كراهيته.

- حاول أن تخسر في اللعب أمام سيدك بقدر المستطاع ، أي عندما يكون الربح هو محور اللعب، وليس المال. فإن رجلا قويا بالفعل، لا يمكن أن ينهزم إطلاقا إلا من سيده.

- مهما كانت الصداقة الوثيقة التي تربطك بسيدك، لا تتخل إطلاقا عن الاحترام والخضوع المتوجبين عليك تجاهه، وإلا فإنه سيظن أن هذه الصداقة جعلتك تفقد معنى الواجب.

- لا تزعم إطلاقا أنك غيرت قرار شخص ما بواسطة نصائحك، لأنه في المرة القادمة سيقاوم نصائحك أكثر. ولا تشتم الشخص الذي يفشل بسبب عدم اتباع نصائحك، بل دع الأحداث تثأر لك.

- لا تعلن أبدًا عن مواردك، أو قوتك، أو خيالك الواسع، أو مهارتك اليدوية، أو سرعتك في السباق.

- إذا ما تم قبولك في مواقع الكبار، وفي مجالسهم، ومع وزرائهم، فلا تفش أبدًا أسرارهم، ولا تحاول معرفة مشاريعهم.

- اخف ما تعرف، وتظاهر بالجهل، وإذا ما تحملت بعض الظلم ممن هو أقوى منك، فلا تشتك إطلاقا وتجاهل هذه الإهانة، لأن الظالم يكره دائما ضحيته.

- أظهر العطايا التي تتلقاها، حتى القليل الأهمية منها، كما لو كانت هدايا عظيمة، إذا ما كان سيدك هو الذي قدمها لك، ورد على ذلك بإبداء محبتك له.

- ارفض بإخلاص مظاهر التشريف، وحاول أن تتلقى أقل قدر منها، فهي تسلط عليك الأضواء دون أن تخدمك بشيء.

◆ إثارة الحماس في العمل ◆

سجل كل سيئات المؤسسة التي تديرها، وأعط وعودًا بمكافآت، وكما يُقْدِم الجنرال قبل المعركة على وعد جنوده الذين سيجرحون في القتال بأنهم سيحصلون على أوسمة، في الوقت الذي يلتزم فيه بحماية مواقعه، فإنه سيرسل إلى أرض المعركة حزمة من الجنود الأشداء للدفاع عن المعسكر. وهكذا فإن الجيش سيذهب إلى القتال، وروحه مفعمة بالسلام.

◆ اكتساب الحكمة ◆

- احرص على أن تبقى صامتا معظم الوقت، واستمع إلى نصائح الآخرين وقيّمها ببطء. ولا تدع مشاعرك تسيطر عليك .

- لا تعط قيمة كبرى لكلامك أو لأفعالك، ولا تكلف نفسك بقضايا لا تجني منها أي فائدة حاضرًا أو مستقبلاً، ولا تتدخل في قضايا الآخرين.

- هلّل وأظهر فرحك، بواسطة الكتابة ، لأعمال الآخرين، وكن مستعدا لإقامة نُصُب لهم، فإن مجدهم وفخرهم سينعكس عليك، وستكسب تأييدهم دون المخاطرة بإثارة غيرتهم.

- تجنب الخضوع لعواطف الغضب أو الرغبة في الانتقام، واستمع باهتمام لكل ما يروى عن فضائل الآخرين، وأبد إعجابك لمَنْ يستحق ذلك فعلا. ولا تعط نصائح إلا نادرًا، ولا تجعل روح المنافسة تسيطر عليك.

- تجنب الدعاوى القضائية، حتى وإن كنت ستتحمل ي بعض الأحيان نفقات أو تعويضات.

- لا تظهر لأي إنسان الأشياء التي تمتلكها، خوفا من أن تجتاح الرغبة أحدهم بطلب هذه الأشياء منك.

- إذا دفعك أحدهم إلى القيام بعمل ما ، فاحرص على أن يتحمل مخاطر هذا العمل معك.

- طالع كتب أصحاب البلاغة والفصاحة فهم يعرفون وسائل إثارة الكراهية، وردها على أصحابها، أو تخفيفها، ووسائل الدفاع عن النفس، والاتهام.

- يجب أن تكون قادرًا على الغموض بحيث يحتمل خطابك عدة تفسيرات، دون أن يكون هناك أي شخص قادرًا على حسمه باتجاه معين، لأن الضرورة تجبر على ذلك أحيانا، كما كان الحال مع أرسطو عندما سجل أفكاره عن طريق الكتابة[1].

- تقبل الانتقادات، حتى تلك التي لا تكون مبررة، ولا تقدم الأعذار لسلوكك، وإلا فإنه لن يكون عندها من يريد أن يقدم النصائح إليك، ولكن يمكن أن تبرهن كم أنت متأثر لخطئك.

- أما الانتقادات التي توجه إليك، وليس لها أساس من الصحة، فلا ترد عليها، وحاول بهذه المناسبة الاعتراف ببعض الأخطاء.

- تدرب وزود قدرتك على الدفاع عن قضية ما ونقيضها، ولذا عليك قراءة كتب البلاغة والمرافعات المنشورة.

- لا ترسل شخصا من خصومك يفكر في الاستيلاء على سلطتك في مهمة، فهو سيتصرف بعكس مصالحك.

- قارن بين صفات مستشاريك، لأنه من النادر أن تجد واحدًا بينهم تكون صفاته متوازنة بشكل طبيعي، وانظر إلى آية جهة تميل الثروة، أو إلى أية جهة يمكن أن تميل.

- تقبل تأنيبات ولوم مسؤولك، سواء كانت مبررة أم لا، واعذره دائما أمام الغير، ولا تذكره إلا بالخير، ولا تقدم أي وعد مكتوب، وخاصة لامرأة، بقدر المستطاع.

- تجنب الارتباط بما يجذبك ويغريك، وضاعف احتياطاتك وحذرك إذا ما حصل لك ذلك، ومهما كان وضعك صلبا راسخا، فلا بأس إطلاقا من تثبيته بقدر المستطاع.

---

(١) تجبر الظروف السياسية أحيانا بعض المفكرين على الغموض في أفكارهم واستخدام الإيحاء والإسقاط بدل الإيضاح والمباشرة، ويظهر ذلك عند تتبع الأعمال الأدبية التي أنتجت في عهود سيطر فيها القمع والاستبداد.

- بعد الانتهاء من عمل قمت به فكر فيه كما لو كان المقصود بذلك عملا يقوم به إنسان غيرك. وتمعن في أية مناسبات جعلت نفسك عُرضة للمفاجأة، أو ما هي الفرص التي ضاعت منك .

◆ الحذر ◆

- هناك شكلان من الحذر : الأول ، يقتصر على معرفتك مدى ثقتك بنفسك. وحتى عندما تكون مع أصدقاء لك في مكان بعيد، ابق على حذرك في اعترافاتك معهم؛ لأن الصداقات التي لن تخذلك يوما تظل قليلة جدا.

الشكل الآخر من الحذر يختلط مع نوع من الطيبة التي تمنعنا من أن نقول بعفوية لكل واحد حقيقته عن طريق إثبات أخطائه له كي يصحح سلوكه. هذا الموقف الذي لا يختلف كثيرا عن المداهنة مفيد جدًّا وهو تقريبا بدون أخطار.

- لا تسترسل إطلاقا وتطلق لنفسك العنان في البوح بأسرارك، لأنه ليس هناك إنسان لا يمكن أن يصبح عدوك في يوم من الأيام، ولا تقم بأي عمل تحت تأثير المرح، فإنك سترتكب أخطاء، أو ستقع في حبائل المكائد.

- لا تعتمد إطلاقا على الآخرين لإعطاء تفسيرات حسنة لتصرفاتك، فليس هناك إنسان في هذا العالم قادر على ذلك.

- لا تكتب شيئا في رسائلك لا يمكن أن يقرأه الآخرون، بل على العكس، اكتب فيها مدحًا للشخص الذي يمكن أن تقع رسالتك بين يديه. وإذا لاحظت أن شخصا يريد الحصول منك على معلومات ما عن طريق التظاهر بأنه على علم مسبق بما يريد معرفته، فلا تصحح له أخطاءه أبدًا عندما يقع فيها.

- استر عيوب الآخرين واعذرهم، ولا تظهر مشاعرك، أو تظاهر بمشاعر متناقضة.

- عندما تكون منتصرا في معركة ما ، لا ترد لعدوك أسراه من ذوي المقام الرفيع؛ لأنه إذا ما خانك الحظ، فإن عدوك سيكون لديه أسباب وجيهة للمحافظة عليك كي يسترد أسراه. بالإضافة إلى ذلك، احتفظ دائما بصلات دبلوماسية مع أركان عدوك وكبار رجاله، إلا في حالة الضرورة القصوى.

- لا تقم إطلاقا، وبشكل علني، بأي عمل لا تستطيع تبريره بسرعة لأن الناس سيحكمون عليك دون انتظار تفسيراتك، فنحن نعيش في عصر يُحكم فيه بسهولة على الفضائل الراسخة، فكيف إذا ما كانت هذه الفضائل مشكوكا فيها.

- إذا ما تقدم أحد أتباعك أو المقربين منك بالتماس ما، دعه يكتب طلبه تحت دعوى دراسة طلبه بشكل أفضل، ولكن لا ترد عليه إلا بصورة شفهية.

- إذا ما كنت مستغرقا في مناقشات شائكة وحرجة، حيث يمكن أن تقع في فخ كلماتك، أعلن مقدما أن كل ما تقوله هو مجرد مزاح.

- ناقض أحيانا محدثيك كي ترى ردود أفعالهم، ثم تابع إعطاء رأيك في نفس اتجاه رأيهم. وبهذه الطريقة تستطيع تبرير الأخطاء التي يمكن أن ترتكبها عن طريق التذكير بأنك كنت قد قلت لهم بأنك لا تتكلم بصورة جدية.

- إذا كنت متعلقا بلعب الورق، أو الصيد، أو النساء، أو أي هواية أخرى جامحة مسيطرة عليك، اعدل وتخل عنها بصورة نهائية، لأن هذه الهوايات تجعلك ترتكب هفوات عديدة.

- لا تقدم آراءك للأشخاص المتهورين، أو العنيفين، فهم لا يحكمون إلا على النتائج.

- لاحظ عيوب وفضائل كل شخص، إذ تستطيع بهذا الشكل، وفي حالة الضرورة استخدام هذه الوسائل أو تلك لتوجيه شخص ما حسبما تريد.

◆ التخلص من ضيف لا تريده ◆

- اتفق مع أحد المقربين منك بأنه بناء على إشارة منك محددة يأتي إليك لإبلاغك بأمر ما، عن طريق الهمس بأذنك، كما لو كان الأمر يبدو أن ثمة قضايا هامة تستدعي وجودك في مكان آخر بصورة عاجلة. أو أن أحد مساعديك الذي يحمل إليك رسالة يعلن عن كارثة، أو عن اضطرابات عند رعاياك. أو أن الطبيب منعك من الشراب أو الكلام.. إلخ.

◆ في المحادثات ◆

- يجب أن تعرف في البداية إلى أي نوع من المحدثين تنتمي، فالبعض منهم يكونون سيئين جدًّا في البداية ثم يتطورون تدريجيا، وحكمتهم لا تظهر فورًا كما لو كانت تنتظر وقتا معينا للظهور. والبعض الآخر، على عكس ذلك، عاقلون، ومقنعون، ولكن إذا طال حديثهم قليلا يصبحون سيئين، ويصدرون أحكاما كيفما اتفق، ويفتقدون تسلسل أفكارهم. فإذا ما كنت تنتمي إلى المجموعة الأولى، فلا تكثر من اللقاءات مع الآخرين، ولكن أطلها في حال حصولها. أما إذا كنت من المجموعة الثانية، فأكثر من اللقاءات ، ولكن اختصرها بمجرد أن تشعر أنها تركت انطباعًا حسنا.

- باعد بين زياراتك كي يكون لها قيمة، وحضر لما سيكون موضوع حديثك بحسب ميول محدثك. فمع هذا تتحدث عن المثاليات، ومع هذا تتحدث عن الفن العسكري، ومع ذاك في الأدب والشعر.. إلخ. ودع كل واحد يعتقد بأن لديك نفس ميوله.

- احرص على ألا تدلي بآراء عندما تشعر بأن فكرك مشغول في مكان آخر لأنك ستفقد انتباهك وتركيزك.

- احرص على أن تبدو حزينا مع المآسي، وغضوبا مع سريعي الغضب، وصبورًا مع رؤسائك.

- انتبه للظروف المحيطة بك، وانظر إذا ما كانت ملائمة لك أم لا، ولتجعل لك أصدقاء بين أولئك الذين يجعلهم انتماؤهم إلى حزب ما أقوياء، أو مع الذي يحالفهم الحظ، واستخدم كل الوسائل من أجل ذلك. وكن مستعدًا في كل مناسبة لمواجهة الوضع الذي أنت فيه.

- إذا ما كان يتوجب عليك الكلام عن شخص آخر، فلا تذكر اسمه أبدا، أو مكان وجوده، أو التاريخ أو الظرف الذي سيسمح لمن يسترق السمع إليك بتحديده.

- كن محترما مع الناس، في تصرفاتك وكلامك، ولا سيما مع رؤسائك.
- كن حذرًا ومتيقظا مع أولئك الذين يعرضون عليك مالا لارتكاب جريمة، فإنهم سينقلبون ضدك. وحاذر أيضًا من الموتورين واليائسين، فمعاشرتهم خطرة.
- كن قليل الكلام مع الأمراء والكبار فهم يفضلون أن تصغي لهم بدل أن يصغوا هم إليك، وكن فيلسوفا معهم بدل أن تكون خطيبًا، وابق محترما معهم حتى ولو بدوا ودودين جدًا وغير متكلفين معك.
- أعط الأولوية للشيوخ واتبع نصائحهم، وأحطهم بالشرف والتقدير لأنهم يصبحون عدوانيين بسهولة، وامدح العظماء وكرمهم.
- تجنب الأشخاص الثرثارين، فهم لابد يرددون كل ما تقوله لهم.
- سارع إلى مدح ميول شخص ما ، وانتقاد ما يحتقره؛ لأنك إذا ما ذهبت إلى عكس آرائه، حتى وإن كان ذلك بصورة عفوية غير مقصودة منك.. فإنك ستجرحه. وعندما تكون منفردًا مع صديق تظاهر وكأنه الصديق الوحيد لك في هذا العالم.

◆ المداعبة ◆

- لا توقع نفسك أبدًا في الابتذال، سواء قولا أم فعلا.
- لا تمزح أبدًا في الأمور الهامة ، ولا حول العيوب الخِلقية أو اللا أخلاقية لشخص ما، لأنه سيحتفظ بذكرى مريرة من ذلك.
- لا ترو أبدًا مآسي الآخرين وتعاساتهم، سواء أكانوا غائبين أم حاضرين.. بإمكانك سماعها وليس ترديدها.
- كي تلطف حديثك دون أن يكون مبتذلا أو ثقيلا، اقرأ كتب أولئك الكتاب الذي تحفل كتاباتهم بالقصص، وكذلك الشعراء الذين تتعلم منهم إبداء مشاعر مرهفة.
- عندما تقوم بوصف ما، لا تعط أسماء، ولا تكشف عن آية تفاصيل غير ملائمة.

◆ المكائد وتجنبها ◆

- تظاهر بأنك على خصام مع صديق إن كنت تشك في مخالفته لرأيك، فهو سيخون مشاعره عندما تحين له الفرصة، ولتجعل هذه الخصومة المفاجئة فرصة لك كي تتخلص من روابط الصداقة معه، وتبعده عنك.

- إذا قام بعضهم بدفعك إلى عمل لن تخرج منه سالما، أظهر قبولا له، وحضر نفسك أمامهم لهذا العمل عن طريق إظهار الصعوبات التي تظهر فعلا، ولكن يجب أن تأخذ، وبشكل متواز، استعدادات مخالفة.

◆ كيف تحصل على المال وتحتفظ به ؟ ◆

- لا تحتقر ما تحققه من تقدم، وتجنب النفقات بصورة عامة.

- استعمل الاقتصاديين ذوي الكفاءة وتعلم منهم طرق الإدارة.

- انظر ماذا يمكن بيعه من منتجات أراضيك واسهر على مزروعاتك وأرضك، واستخدم الفنيين لذلك.

- كن على علم بكل أنواع الإنتاج، واطلب إعلامك بها بصورة منتظمة.

- إذا ما واجهتك نفقات جديدة، حضر مسبقا وسائل تمويلها، وابتكر عائدات إضافية كي لا تجد نفسك في حالة عجز، فإذا ما قررت مثلا إنفاق أربعة آلاف قطعة ذهبية لاستخدام جنود أشداء ، عليك مسبقا فرض ضريبة على أي شيء ترفيهي، كي توازن النفقات التي التزمت بها.

- لا تحتفظ عندك بأي أشياء ثمينة معرضة للتلف أو الكسر مع الاستخدام، ويكفي أن تستعمل الأدوات التي تناسب مقامك.

- لا تشتر الأوعية الفضية التي تستمد قيمتها من عمل صانعها الفنان؛ لأنك إذا اضطررت إلى بيعها يوما ما بسبب الحاجة مثلا، سوف تكتشف أن هذا كان استثمارا سيئا.

◆ منح التكريم والحصول عليه ◆

- أثبت أولا أنه لا غِنى عنك إطلاقا لأي وظيفة ما، عن طريق براهين بأنك أنت المقصود والمأمول للحصول على هذا الشرف الكبير، ثم تبدأ برفضها مدعيا بأن الوظيفة التي أنت فيها حاليا تؤمن لك الامتيازات المرتبطة بهذه الوظيفة.

- أعلن أيضا أنه بفضل نصائحك الجيدة تم إيجاد الوسيلة لتحقيق مشاريع تخدم عامة الشعب، مثل بناء المستوصفات العامة للمرضى، دون اللجوء إلى المساهمات الشعبية.

- لا تعتمد على قيمتك الشخصية، وعلى مواهبك للحصول على وظيفة، ولا تتخيل أو تظن أنها ستكون لك تلقائيا بحجة أنك الأكثر أهلية وجدارة لشغلها، لأنه يفضل دائما إعطاء الوظيفة لإنسان غير مؤهل، بدلا من إعطائها لذلك الذي يستحقها. تصرف إذن كما لو كنت لا تريد الاعتراف بوظائفك إلا بفضل سيدك وكرمه عليك.

- للحصول على وظيفة ما استبق الآخرين، واقطع وعودًا بترقيات غير قانونية واستخدم وسطاء، ثم لا تضيع إطلاقا الفرصة للوفاء بالخدمات التي وعدت بها.

- قلل من قيمتك الذاتية في العلن وقل بأنك غير أهل لهذه الوظيفة، وإذا ما حصلت عليها، فإن اعترافك بالفضل يجب أن يكون كبيرا جدًّا.

- إذا كانت الوظيفة التي تشغلها تستلزم نفقات ضخمة، وإذا ما كانت مواردك الشخصية أكبر من كل موارد الآخرين، وكي تتجنب أن تذهب هذه الوظيفة إلى شخص آخر، استثمر كل عائدات هذه الوظيفة في إنشاء مؤسسات دائمة. وبهذه الطريقة فإن من سيشغل هذه الوظيفة من بعدك سيكون مضطرا للاعتماد على موارده الذاتية، وستبقى موارد الوظيفة داخل المؤسسة التي بنيتها.

- يجب دائما النظر إلى الأمام، وإذا ما التزمت بدراسات، فعليك وضع كل طاقاتك فيها، دون أن تترك نفسك تسترسل في هذا الترف الثقافي الذي يبحث عنه بعض العلماء في دراساتهم. وإذا ما كنت تسعى إلى الفضيلة، فلتكن الفضيلة

الكبرى والمثلى. وإذا ما كنت تبحث عن التكريم، فعليك الطموح إلى أعلى مراحله لأنه سيشكل ضمانة لك[1].

◆ الرد على الالتماسات ◆

– لا ترد على الالتماسات بصورة سلبية فورًا، ولكن ضع رفضك من خلال خطاب طويل، وإذا رفضت شيئًا ما لأي إنسان فلا تغير رأيك بسرعة، وإذا ما عدلت عن رفضك فليكن ذلك لأسباب وجيهة.

– عندما يكون عليك الرد بصورة سلبية على طلب مقدم إليك، فكِّر لحظة، ثم تصرف كما لو كنت فعلا متأسفًا لعدم قدرتك على الإجابة على هذا الطلب. كذلك يمكنك الاتفاق على إشارة معينة مع أحد خدمك كي يأتي بعد برهة من الوقت ليعلن لك بأنه وصلتك رسالة، أو أنه حدث عندك أمر مكروه، وليشر إلى طالب الالتماس بالصوت والحركة بأنك لا تستطيع تلبية طلبه. ولكن على أية حال هنئه على مسعاه، وإذا ما ألح على طلبه اسأله من جهة أخرى كيف تستطيع أن تثبت له صداقتك. اطلب عند هذه المرحلة من أحد خدمك، الذي يكون على علم مسبق بذلك، أن يهتم به، وأن يسهر على مصالحه بصورة دقيقة.

– إذا أرسلت أنت طالبك إلى شخص آخر، تجنب أن يذهب ويداه فارغتان، وأرشده إلى المسعى الذي يجب عليه اتباعه كي يقابل ذلك الشخص الذي ترسله إليه.

– صغار الناس هم أولئك الذين يتحمسون بسرعة، وعواطفهم تنطفئ بسرعة أيضًا، وإذا ما حاول أحدهم التماس شيء ما منك بصورة مفرطة، لا ترفض طلبه فورًا، ولكن دعه ينتظر مستخدمًا حججًا وأعذارًا خاصة مصحوبة بكلمات جيدة. وإذا كانوا متمسكين بشيء فلا تقلق أبدًا، لأنهم سيعدلون عنه، أو أنهم حتى سيتحمسون لشيء مناقض له تمامًا.

---

(١) أشبه هذا قول المتنبي:

إذا غامرت في شرف مروم ... فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير ... كطعم الموت في أمر عظيم

- كن واثقا ومتأكدًا بأن كل علامات وأمارات الحقد التي يبديها لك الآخرون صحيحة، لأن في الحقد، على عكس الحب، ليس هناك رياء.

- إذا لم يكن في مقدورك رفض وظيفة لشخص ما، أعطه منصبا يشكل خطرًا عليه، لكن دون إلحاق المخاطر بالإدارة العامة.

- ضع بيانا بأعمال وتصرفات مخدوميك عن طريق العودة إلى السجل الذي سجلتها فيه، وهكذا تقيل البعض من وظائفهم، وترقى آخرين، وتوزع مناصب، وتصغي إلى مطالب.

- دع الجميع يعلم بأنك إذا ما كنت تستمع لكل الطلبات المقدمة شخصيا، فإنك ترفض بصورة قاطعة كل الطلبات المقدمة عن طريق الوسطاء، وأخيرًا لا تقطع على نفسك أي تعهد لمدى طويل.

◆ إظهار العواطف ◆

- راقب التصرفات العاطفية عند الشعراء، وتدرب جيدا على لعبها وقت الحاجة لدرجة تطبعك بها إن صح القول.

- لا تكشف لأي إنسان عن مشاعرك الحقيقية، والعب دور المخلص.

- زين قلبك مثلما تزين وجهك، وأيضا نبرات صوتك مثل كلماتك، فمعظم المشاعر تُقرأ على الوجه.

- إذا كنت ذا طبيعة متخوفة ومتوجسة، سيطر على خوفك معتبرا بأنك الوحيد الذي تعرف ذلك، وتصرف كما لو كنت شجاعا، وتصرف بالطريقة نفسها بالنسبة للمشاعر الأخرى.

- في الأعياد والاحتفالات، احرص على أن تكون احتفالاتك رائعة ذات أبهة وخارجة عن إطار المألوف، ومتميزة بالعظمة؛ لأن المهم في كل احتفال ليس فقط النوعية، وإنما الندرة والطرافة.

◆ تجنب الخسائر ◆

- كن متيقظا لأبسط الخسائر وأقلها، وعلى مستخدميك أن يعلموك بها فورًا مع المخاطر المصاحبة لها في حالة عدم إصلاحها، ثم وسائل القيام بهذه الإصلاحات.

- إذا ما كنت مسؤولا عن الإدارة، قدم كشفا بكل ما يدخل وما يخرج، وكن أمينا، ولا سيما إذا كان سيدك يبدي عطفه عليك.

◆ ستر الأخطاء ◆

- إذا حدث أن تفوهت بجملة خطأ، أو إذا تصرفت بصورة غير لائقة، تظاهر فورًا، وكأنك قمت بهذا عمدًا لإثارة الآخرين، أو لتقليد شخص ما، واضحك كما لو كنت مسرورًا من تصرفك. أو يمكنك أن تظهر أسفك لأن أحدًا لم يفهمك جيدًا.

- إذا أخطأ أحدهم عن جهل منه ، فلا تثبت عن طريق طرح الأسئلة أنك كنت ستقع في نفس الخطأ لو كنت في نفس الوضع. ولكن فكر في أفضل طريقة لمعرفة الحقيقة.. اسأل مثلا شخصا آخر: ماذا كان سيفعل لو كان في نفس الموقف؟ مع إخفاء رأيك عنه من أجل تغطية جهلك.

- إذا كنت نسيت شيئًا كنت قد قلته من قبل - وهذا يحدث عندما تتكلم بإخلاص - انتبه كي لا تقول العكس ، ولذا من الأفضل تسجيل الأساسي مما نقوله.

- انتبه لعدم الخلط بين الناس، لأنك إذا أخطأت في تحديد هوية محدثك، فإنك ستكشف عن جهلك مع الأول، وستطلع الثاني على نواياك التي يجب ألا يعرفها، ولذا خذ احتياطاتك مسبقا كي تتجنب الاثنين معًا.

◆ الدفع إلى كره الخبثاء ◆

- إذا كنت تريد أن يفقد ذلك الشخص الثقة بمن يحميه، امدحه، ولكن بطريقة يبدو فيها المديح وكأنه تهجم عليه هو وسيده. وأضف إلى كلامك بأن ما تقوله هو فقط ما تروجه الإشاعات، وأنك لا تتكلم بصورة شخصية، تاركا إياه يستخرج بنفسه النتائج الواضحة والتي تتعلق بسمعته، ودعه يفهم أن سمعة مَنْ يحميه أصبحت فعلا سيئة، مشجعا إياه على احتقار الرأي العام، وعلى ترك كل هذه الإشاعات تموت لوحدها، وهكذا سيفهم من كلامك بأنه معنيٌّ بذلك شخصيا.

- امدح رأفته وكرمه، وتظاهر بالتعاطف معه، وتكلم بلهجة مشحونة بالمشاعر عمن يحميه مبالغا في كلامك. قل مثلا: (أين مثله رجل نادر الوجود، وكم هو مؤسف أن تشوّه بعض الممارسات المشينة سمعته) ولكن دون أن تذكر هذه الممارسات.

- احرص دائما على ألا تهدد أبدًا الشخص الذي تنوي محاربته، لأنه سيستعد لذلك، ولكن دعه يتصور أن قواتك أقل من قواته، وأنك حتى لو أردت محاربته ، فإنك لن تستطيع فعل شيء ضده. أعد معه روابط الصداقة لتكسب ثقته، واجعل جواسيسك في المكان الذي تلتقي فيه معه من أجل حديث ما، ثم ادفعه للإدلاء بأقوال متطرفة، كأن يتحدث بسوء عن الأمير مثلا، عندئذٍ تستطيع الوشاية به.

- بالغ في وصف الأعمال القبيحة التي يرتكبها عدوك، والمآسي التي ستنجم عنها إذا لم تتم معاقبته. وكي لا تبدو مدفوعا بعاطفتك تدخل لدى الأمير كي تطلب العفو عنه، لكن دون أن تسعى للنجاح في ذلك.. إذ عليك الاستفادة من هذا الأمر للإفاضة في الحديث عن صفاته القبيحة ، مفسرا بصورة ذات مغزى طباعه وأفعاله من أجل الإضعاف من مركزه، وبمجرد أن تسنح لك الفرصة ادفعه للهاوية.

- لا يجب عليك إطلاقا محاربة عدة أعداء في وقت واحد، وعندما تهاجم

أحدهم يكون من المستحسن لك أن تعقد صلحا مؤقتا مع الآخرين.

- تأكد أولاً من صلابة وقوة وضعك قبل أن تهاجم أحدًا ما، ولا تترك نفسك أسير عاطفة الثأر مضيعًا الفرصة للتقدم في أعمالك.

◆ إنهاء صداقة ◆

تجنب قطع العلاقات والصداقات المفاجئ، حتى وإن بدر من صديقك سلوك مشين تجاهك، وأنت على حق، ولا يجب أن تشعر تجاهه بالكره، بل سامحه، ولكن أطفئ كل عاطفة في نفسك تجاهه تدريجيا، واترك عرى الصداقة تنفصم بهدوء داخل قلبك.

- أيضا، تابع اللقاءات معه، وتكلم معه إذا ما اقتضت الظروف ذلك من أجل بعض الأعمال ولكن بجمل موجزة قصيرة.

- ادعه لمائدتك كي لا تترك انطباعا عنك بأنك لا تتذكر صداقتك مع الناس إلا عندما تكون في حاجة إليهم.

- إذا كنت متأكدا أو تفترض بأن أحدًا ما هو صديق مقرب جدًّا من الحاكم، جرب معه هذه التجربة: أقنع هذا الذي يتبجح بهذه الصداقة مع الحاكم أن يطلب منه شيئا يمسك به بصورة خاصة، والذي لا يمكن أن يعطيه إياه مرغما، أو أنه سيرفض ذلك صراحة، وبعد أن يواجه الفشل في هذا المسعى، وفي أثناء حديث عرضي، بالغ في إبراز عدم أهمية هذا الشيء المرفوض، وبالغ في أهمية الرفض.

◆ مدح الآخرين ◆

- تكلم بلهجة صادقة ، وقل بأن الكلام يخرج من قلبك، وأنه ليس في ذهنك سوى خير البشر، وفي الوقت نفسه أكد بأن لا شيء يزعجك أكثر من الإطراء. ثم تابع كلامك قائلا بأنه يجب تفهم وداعة ورأفة الأمير، وأن خشوعه العميق وتقواه هما سبب عدم قسوته.

- لا تتلفظ أبدًا بمدائح يمكن أن تفهم على أنها انتقادات مباشرة ضد الغير، إلا إذا كنت موجودًا وسط حشد من الناس، حيث كل الناس يصرخون في نفس الوقت، دون أن يعرف أي إنسان ماذا يقول الآخر.

- لا تتكلم عن فضائل صديقك، واستر نواقصه !!

◆ كظم الغضب ◆

- تجنب أن تغضب بسرعة ضد أي إنسان كان، لأنك غالبا ما تلاحظ أنه قد تم تضليلك من خلال تقارير مزيفة، وإذا ما تركت نفسك على غضب فإن الأخطاء ستصيبك.

- إذا ما وُجِّه إليك أي انتقاد، فإن أفضل جواب تعطيه هو أن تبرهن بأنك فهمت سخافة هذه الأقوال أو نواياها السيئة. والعب دور البريء بردك على الكلمات وليس على المعنى، ثم تظاهر بأنك مشغول بمسألة أخرى.

- إذا ما تهجم أحدهم عليك، ليس عن طريق الإشارة إليك بالاسم، ولكن بإشارات واضحة إلى عمل كنت أنت قد قمت به، أمسكه بكلامه، وندد بهذا العمل، وبالناس القادرين على ارتكاب مثل هذه الأعمال البشعة، بحيث تبدو كما لو أنك لم تفهم أنك أنت المقصود بهذا الكلام، أو تظاهر بأنك لم تعرف ما هو المقصود، وجاوبه حول قضية أخرى. ولكن إذا وصلت به الدرجة أن يسميك بالاسم، تظاهر بأنه يمزح معك، وابذل جهدك كي يثور ضدك. يمكن أن تجاوبه ببعض النكات التي تضحكه، أو ضخِّم اتهاماته ضدك كما لو كان المقصود شخصا آخر، وأضف إليها الكثير حتى يصبح في حرج من انتقاداته، ثم انزع سلاحه نهائيا مبرهنا له بأنه ما كان عليه تجهيز كل قواته ضدك.

- إذا ما استقبلك أي شخص بصورة غير لائقة، لا تقل شيئا، ولا تظهر مزاجك السيئ عن طريق التظاهر بأنه استقبلك كما يجب؛ لأنه سيحاول عندئذٍ تصحيح أخطائه نحوك بأعمال جيدة.

- إذا ما لاحظت بأن أحدًا ما يفتش عن إثارة مشكلة معك، وإذا لم يكن ثمة وسيلة لتجنب ذلك، فإن عليك تغيير هذا الوضع عن طريق رواية بعض القصص

القصيرة المسلية حتى تحول موضوع الحديث إلى اتجاه آخر.

- اترك لخصمك الوقت الكافي ليتأكد من سوء عمله، متجنبا لفت انتباهه لذلك، حتى تنزع منه كل حجة للثورة أو الغضب.

- إنه لمن الصعب جدًّا الثورة ضد شخص لم يف بوعد قطعه على نفسه خلال فترة محدودة، لأنه لابد أن هناك ما منعه عن ذلك؛ لذا تجنب طلب تعهدات من هذا النوع.

◆ إنزال العقوبات ◆

- لا تمارس العنف إطلاقا بصورة شخصية ، وكن حذرًا من عدم ارتكاب جريمة قتل، وإذا ما كان عليك معاقبة أحد بقسوة، وإذا لم تكن ضدك وقائع وأدلة خطيرة تتهمه بها، فإليك طريقة العمل: اقتص من ابنه على خطأ بسيط كان يمكن أن تسامحه عليه، أو أنك تعاقب عليه في العادة بصورة بسيطة. عندها سيثور الوالد، وسيبدأ في الكلام والشكوى. ضاعف العقوبة على ابنه كي يضاعف شكواه. عندها اتهمه بالتمرد وعاقبه بقسوة على هذا العمل الخطير.

- قد يحدث أن تؤدي عقوبة ما إلى إثارة الشباب بدلا من تهدئتهم، لذا فإن عليك تلبية الطلبات التي لا تضر بشيء.

- إذا ما طردت أحدًا من بلاطك، أو من بيتك، أو من أشغالك، وإذا ما أسف الآخرون لهذا العمل، اشتك من تصرفات هذا الإنسان الذي طردته علنا، وقل بأنه كان يقدم لك نصائح سيئة، وأنك تأسف لأنك لم تنتبه إلا مؤخرًا لكل الضرر الذي كان يلحقه برعاياك، عندها سيفرح أولئك المتأسفون على سقوطه، لأنهم سيرون أعمالهم تسير بصورة سيئة.

- إذا أردت معاقبة شخص ما لتقويم سلوكه، ناقش معه طريقة العلاج التي يجب أن يخضع لها. فهو يفضل أن يجد العلاج بنفسه، وبالتالي سيفرض بهذه الطريقة عقوبته الذاتية.

- كن عدوًّا لكل أشكال التفتيش التعسفي، وأغمض عينيك عندما تستطيع ذلك دون أن تضر أحدًا.

- لا تحكم على ذوي الأصل العريق بعقوبات قاسية، ولا تعاملهم مثل العامة.
- إذا أردت إعادة إنسان إلى طريق الصواب ضعه في وظيفة أو مكان حيث سيكون عليه تصحيح أخطاء الآخرين المماثلة لأخطائه. مثل أن تعين مدمنا للكحول مسئول عن محاربة الإدمان.. إلخ.
- إذا ما قبل شخص ما بتنفيذ العقوبة علنا وبصورة مشرفة تجاوب مع أمانيه التي وضعها في هذا التصرف ولا تدفعه إلى زيادة أخطائه. اقبل بتعديل عقوبته، وراقبه بعد إصدار الحكم، كي ترى هل أصلح من سلوكه وحياته.
- عندما تتوجه إلى متهم لا تدعه يشعر بأنه ليس هناك أمل له، وأن الاستماع إلى جرمه من شأنه إثارة غضبك. بل بالعكس، برهن أمامه على طبيعة تميل إلى الرأفة والرحمة.

◆ وضع حد لتمرد ◆

- لا توافق على مقابلة عدة متمردين في نفس الوقت من أجل التفاوض معهم ، بل عليهم أن يعينوا مندوبا عنهم يمثلهم.
- كل ثورة لابد أن لها سببا - كما يقول الفلاسفة - وإذا كانت هذه الثورة بسبب الديون، فعليك إصدار أمر بتأجيلها.
- عِد بمكافأة لكل شخص يعيد السلام المدني، أو يجد لك وسيلة للقيام بذلك، أو أن يكون قضى على المشاغبين، أو قام بتسليمهم.
- عندما يغرق الشعب في فوضى عنيفة، اتخذ وسطاء من الناس ذوي السمعة الطيبة كي يعيدوا الشعب إلى الفضيلة عن طريق تذكيره بالله والتقوى، لأن هذه المشاعر هي التي تستطيع تليين الأفئدة لوحدها.
- روج إشاعة مفادها أن قادة الثورة لا يسعون إلا إلى مصلحتهم الشخصية ويهدفون إلى الطغيان، ولو كان ذلك بتعاسة ودم الآخرين، وأنهم غير مستعدين لتقاسم أي شيء مع الآخرين.

◆ الاستماع إلى المديح ◆

- يجب أن تمتلك الحكمة لرفض المدائح القائمة على المقارنة أو المدائح المبالغ فيها، حتى ولو كان لها أساس من الصحة؛ لأنه من الصعب على الناس تصديق ما هو مبالغ فيه.

- إذا قام إنسان ما بمدحك أمام الأمير بشكل مكشوف.. اسأل نفسك إذا ما كان قد اتهمك بشيء في أثناء غيابك.

- عندما يمدحك إنسان بصورة مبالغ فيها قل لنفسك بأن هذه مسرحية يتم لعبها أمامك. وعندما يكون كل ما تقوله مقبولا، أو عندما يتم إضفاء القداسة على أعمالك، فإن عليك الحذر من كل هذا.

- لا تدّع أو تسهب في شرح إمكاناتك الواسعة، فإنك بذلك تعطي معلومات عنك لخصمك. وإذا ما أردت التعريف بعظمتك عن طريق نشر سيرة حياتك، فيكفيك كتاب صغير يستطيع كل الناس شراءه، ويحظى برضى القراء في كل مكان. يمكنك أيضًا أن تتصل بالكتاب المختصين في هذا النوع من الكتابات كي يدخلوا اسمك وأعمالك في مؤلفاتهم. بهذه الطريقة فإنهم يخدمون شهرتك أكثر من كتاب ضخم لا يريد أي إنسان شراءه.

◆ الحفاظ على السّلم الداخلي ◆

- لا تحدد لنفسك مهلة لتسوية قضية ما ، ولا تأخذ على نفسك أي تعهد شرف بعدم تجاوز هذه المهلة؛ لأنك خلال هذا الوقت ستكون مجبرًا على إهمال العديد من القضايا التي قد تطرأ بشكل مفاجئ، كما أنك إذا واجهت عقبات في تسوية هذه القضية ستنزعج.

- أقنع نفسك بأنه من المحتمل أن يقوم أحد أتباعك بارتكاب خطأ ما في يوم من الأيام، فليس هناك شيء مضمون بشكل مطلق.

- إما أن تكون أمينا على السر الذي تؤتمن عليه، وإما أن ترفض معرفته

والاطلاع عليه.

- تجنب ترك أموالك في مكان معروف، ولا تتجاوز تعابير التهذيب العامة مع الناس الذين تشك بثرثرتهم الأكيدة.

- لا تقطع على نفسك عهدًا بشكل عفويّ بالتدخل لمصلحة الآخرين، لأنك إذا لم تتوصل إلى ذلك لن ينالك إلا الهم والقلق.

- لا تقم شخصيا بتسوية مسائل مع الحرفيين، ولا تتعامل أبدًا مع النسوة اللاواتي يذرفن الدموع بسرعة، ولا تعاندهن .

- إذا حاول أحدهم أخذك إلى مكان لا ترغب في الذهاب إليه، ارفض ذلك واضعًا مصلحة أعمالك في المقدمة.

◆ مواجهة التهجمات على شخصك ◆

- إن نوازع الخبث في طبيعة الإنسان تظهر واضحة جلية في مجال الإطراء والمديح والتزلف والتملق.

- خذ القصاصات المكتوبة إليك والتي يتهجم فيها كاتبها عليك، واقرأها بنفسك، واطلب من الآخرين قراءتها، واسخر منها كي تثبط من عزيمة مؤلفها.

- تجنب مواجهة الهجاء في العلن.. تذرع بأعمالك ولا تخرج من بيتك، وإذا ما وجدت نفسك مجبرًا على ذلك اقرأ النص الهجائي عدة مرات، وتعلم أن تضحك من هذا.

- تظاهر بالعواطف التي تناسب الوضع الذي أنت فيه: تخيل مواقف الجماهير واخترع ردودًا عليها مبديا الحرص على أن تكون ملائمة للعواطف التي قررت إبداءها.

- لا تُخْف بشكل دائم انفعالاتك في كل مرة يحدث لك فيها مكروه، حتى لا يستنتج الآخرون من صمتك بأن حادثا ما قد وقع لك.

- إذا أردت تقديم تعازيك لشخص ما بمناسبة حدث جَلَل أصابه، احرص على التمسك بالتعابير العامة التي يقترحها البلغاء، دون أن تضيف إليها شيئا شخصيا، حتى لا تصبح مؤاساتك نوعًا من التقريظ.

- إذا ما تهجم عليك أحد بحضورك، كن يقظا، ولا تقل أي كلمة سواء لوما أو مديحا، فهذه وتلك ستجلب لك الكره ممن حولك.

- إذا ما انتقدك رؤساؤك تكلم عنهم بالخير، ولا تسمح لأي إنسان بالإشارة إلى ما حدث، حتى وإن كان هذا يرضيك.

- اترك للآخرين المجد والشهرة، وابحث أنت عن واقعية السلطة.

- إذا ما رقيت إلى وظيفة تتضمن جزءًا تشريفيا، عين خصمك معك، كي تتجنب المشاكل التي يمكن أن يثيرها لك، واترك الجانب التشريفي من الوظيفة له، واحتفظ أنت بالسلطة الحقيقية.

◆ تعديل السلوك ◆

- إليك كيف تعدل سلوك الناس ذوي الأصل العريق: امدح أفعاله، حتى تلك التي ليست بذات أهمية كبرى، فإنك بذلك تزيد من وفائهم، ولكن في نفس الوقت، أعلمهم سرًا بانتقاداتك لهم بواسطة أصدقاء.

- إذا ما وقع إنسان في علاقات غرامية غير شرعية، وأنت ترغب في إنقاذه منها، أغرقه بالأعمال المعقدة التي تشغله، وادفع الآخرين لمراقبة كلماته وأفعاله، وادفعهم للشهادة ضده، ولا تتوقف عن انتقاد كل ما يقوم به، حتى يَعْدِل عن علاقاته القديمة التي كانت مثالا سيئا له.

- ضع شريكا ضعيفا مع رجل عنيف ، وإنسانا متحمسا مع شخص خامل.

◆ مواجهة المشاعر المثارة ◆

- إذا ما انتشرت عواطف خاطئة بين أفراد الشعب، فإن من الأفضل لك إخفاء مشاعرك، لأن عداءك لها يسبب لك معارضة سياسية. من هنا تأتي أهمية عدم الظهور في العلن في مثل هذه الحالة، وإقناع أولئك الذين يحملون نفس العواطف إنك مثلهم. وأفضل حل عندئذ هو أن تغرق نفسك في اللهو والاحتفالات كي تنسى العواطف التي تريد إخفاءها. وبالتالي فإن أي إنسان يراقبك لا يمكنه أن يعرف إن كنت غاضبًا أو مسرورًا.

◆ القروض ◆

- عندما يقوم أحد موظفيك بإعطاء قرض اؤمره أن يجعل المدين يوقع على لائحة تفصيلية. كما أن عليه أن يتصرف في هذا الأمر كما لو لم تكن أنت على معرفة بالقرض، وأنه قام بذلك من تلقاء نفسه، ولذا فإنه يطلب من المدين مثل هذا الضمان.

- إذا لم يكن في استطاعتك رفض طلب قرض، ولا ترغب فعلا في منحه، فإن عليك الادعاء بأنك أنت نفسك مدين، وتظاهر فعلا بأنك تبحث عن دائن يقدم لك القروض. أو أن تقول بأنك لا تملك المال الذي يطلبه صديقك، ولكن تستطيع إيجاده له دون أن يدفع فوائد، ويكفي أن يقدم لك ضمانا.

◆ الحصول على الحقيقة ◆

- لمعرفة ما يفكر فيه أحدهم عن سياستك بث آراء مماثلة لآرائه بواسطة شخص آخر، أو اقرأ بنفسك نصا تكون أنت قد كتبته ولكن تدعي أنه من صنع شخص آخر.

- إن الصداقة قد تدفع أحيانا أصدقاءنا إلى سوء التقدير، وليس ذلك بسبب أن الأصدقاء الذين يمتدحوننا ويشجعوننا على المبادرة غير مخلصين، ولكن لأن تفهمهم لنا يتناقض مع التقدير الصحيح الذي يفترض عند القيام بأي عمل إلا بعد الحصول على معلومات نبني عليها تقديرنا، ودراسة الظروف والأوضاع.

◆ اتهام الآخرين ◆

- لا تلجأ إلى الشكوى إلا كحل أخير، ولا تتقدم بدعوى ضد أحد إذا كنت تعلم أن مكانته عند القاضي أفضل منك.

- إذا تقدمت بدعوى ضد شخص ما، وكان الحق إلى جانبك تصرف كما لو كنت على خطأ.

- اذهب لرؤية القضاة ومعك الهدايا واستقبلهم عندك.
- حاول إيجاد وسطاء يستطيع خصمك التفاهم معهم.
- احص بدقة وبذهن صافٍ الاعتراضات التي يمكن أن يقدمها خصمك ضدك، وكيف تستطيع الرد عليها، ولكن احتفظ بكل هذا بصورة سرية، ولا تبح به لأحد.
- لا تدع نفسك تنساق، تحت أي حجة أو عذر، إلى تعداد حقوقك وامتيازاتك أمام أيٍّ شخص كان، لأنك بهذا الشكل تكون قد أعلمت خصمك بصورة مباشرة بالحجج التي تريد الاستناد إليها.
- اسأل عن طباع خصمك: هل هو جبان؟ أم عنيف؟ كيف تتأقلم معه؟ فإذا ما كان عنيفا تجنب اللحظات التي يكون مهتاجًا فيها، وإذا كان جبانا عليك التصرف تجاهه ببطء.
- احذر أيضا أن يعلم خصمك أنه متهم، أو أنك أقمت الدعوى ضده. إنه يجب أن يتلقى الاتهام بصورة مفاجئة، دون أن تدع له الفرصة أو الوقت للدفاع عن نفسه.
- اختر محاميك جيدًا، وليس المهم فيه قيمته أو صفاته، إنما المهم أن يكون على علاقات جيدة مع القاضي. أشركه في قضيتك، وأقنعه أنه إذا ترك الأمور على مجراها فإنه سيجد نفسه في نفس الأخطار المحيقة بك.
- يجب أن ترتدي اتهاماتك طابع الصداقة، وليس الطابع القانوني أو الرسمي، وأضف إليها بعض التفاصيل السيئة المستوحاة من عيوب القاضي نفسه.. فالقاضي هنا سيعتقد أنه من السهل عليه التعرف على هذه المفاسد، بل يمكن أن تصل به الدرجة أنه سيظن أن سمعته وموقفه وحتى حياته، ستكون مهددة في قضية من هذا النوع.
- تظاهر أمام القاضي بأنك تتفهم موقف خصمك، لكن حرصك على المصلحة العامة يدفعك للتصرف بهذا الشكل.

◆ عندما تكون أنت متهما !! ◆

- حاول أن تظهر بمظهر ذلك الذي لا يعرف أن هناك شكاوى مقدمة ضده، وتجنب تصحيح سلوكك بصورة مفاجئة فيما يخص هذه الشكاوى، حتى لا يكشفك خصمك، وأن يكسب اعتراف ذلك الذي يشتكي إليه منك.

- تكلم عن خصمك كما لو كان عدوًّا شخصيا، وأضف بأنه واشٍ محترف، وأن من عاداته استخدام نفس الاتهامات عندما يهاجم الآخرين أمامك، وأن أمثاله لا يتصرفون بحكمة أو بمسؤولية اجتماعية، وأن على القاضي أن يعتبر هذا الصنف من الناس ليس كحلفاء ولكن كمخربين، وأنه - أي القاضي - إذا ما أصغى إليهم، بحجة أنهم سيكونون نافعين، فإنه سيتحمل النتيجة يوما ما بصورة شخصية.

- اعتزل، واهتم بأعمالك كما لو أردت أن تنسى عن طريق الاهتمام بأمور جدية فعلا، ولكن احتفظ بكراهيتك تجاه ذلك الذي وشى بك، وانظر ماذا يجب أن تفعل في هذا الوضع الذي خلقته لك وشايته.

- إذا كان يتوجب عليك الرد على عدة اتهامات في وقت واحد، فلا تنكرها كلها حتى لا تفقد مصداقيتك، ولكن اعترف بذنبك عن بعض الاتهامات، حتى وإن لم يكن ذلك صحيحا، ذلك حتى تثبت وداعتك، وكي لا تظهر بمظهر ذلك الذي لا يقبل الانتقاد.

- وإذا علمت أنه قد وُشِي بك لسيدك، فإنه من الأفضل ألا تحاول تبرير تصرفك إلا إذا طلب منك ذلك؛ لأنك لن تقوم سوى بتعقيد الأمور وجلب الضرر لنفسك. والعكس هو أن يكون أول رد فعل لك هو تجنب أي تبرير، وأن تتهم الآخرين، قبل أن تكون متهما.

◆ تدوين مذكرات الرحالة ◆

*** في زياراتك للمدن والأرياف قم بالآتي :**

١ - سجل كل ما يبدو جديرا بذلك، سواء أكان جيدًا أم سيئا، وبلغة غير مفهومة حتى إذا ما وقعت كتاباتك في أيدي الآخرين لا تجرح شعورهم.

٢ - زُر كل شيء : الأماكن العامة والخاصة، والمعابد، والقصور، وقبور الرجال المعروفين.. إلخ.

٣ - قم بإحصاء التلال، والجبال، والغابات، والأودية، والأنهار، والينابيع وأصل أسمائها.

٤ - سجل مواقع المدن، ومناجم مختلف المعادن، وقائمة بالأعياد الدينية والوطنية وكل شيء تزوره بدقة.

٥ - سجل في كل مدينة طريقة إمدادها بالماء، والطرائف الموجودة بها، والحصارات التي تحملتها، وأصل العائلات الكبيرة فيها.

٦ - تعرف على الفنون الموجودة فيها والحرفيين الذين يمارسونها ومخازن السلاح وآلات الحرب والقصور، وعادات الطعام، وأهمية السكان.

٧ - تفهم نوع النظام السياسي، وأهمية الاحتفالات في أثناء الأعراس والمهرجانات.

٨ - استعلم أيضا عن التجارة والدين والدراسات وكل ما يميز أي شعب عن غيره من الشعوب، وعليك أيضا أن تسجل كل ما يفتن أي شعب، أي ما يستطيع أن يهزمه.

٩ - قل كلامًا حسنا عن الشعب الموجود أنت عنده، وكلاما لاذعا عن الشعوب التي تتناقض عاداتها مع عاداته.

◆ القراءة ◆

- اقرأ كتبا تتحدث عن أساليب التأكيد، والبرهان، ونظام وموقع الكلمات، والإسقاط ، والإثبات، والحجة، والقياس، وكيف تطرح الأكبر، وتثبت الأصغر، وتقوي هذا أو ذاك، واستخلاص النتائج الإيجابية والسلبية والبحث عن الاعتراضات، وتواصل الخطب، وتوسيع الفقرات، واكتشاف قوة وجهة نظر عدوك ونقاط ضعفها، وإمكانيات دفعها.
- بذلك تستطيع تفحص كل جزء من خطابك، من وجهة نظر شكلية أولا، ومن جهة الاعتراضات التي يمكن أن يثيرها ثانيا، وأخيرا الجواب الذي سيلقاه، وعندها ستحكم على النواقص الموجودة به، وسترى ما سيدحضه خصومك، وما يمكن أن يثيروه ضدك عند مهاجمتك.
- لا تنتقل بسرعة من العام إلى الخاص ، ويجب أن تعلمك قراءتك استخلاص الاعتراضات بوسائل أخرى وتوضيح ما هو صعب الفهم عن طريق الإحاطة بالصعوبة وتحليلها.
- لا تكتف بنوع واحد من القراءة، بل نَوِّع قراءتك، لأنك غالبا ما تجد في كل منها شيئا جديدًا يلفت انتباهك أو ذكاءك.

إذن.. اقرأ.. اقرأ.. لتكون لنفسك مخزونًا احتياطيا من الحجج المناسبة لكل مقام كما يقول الجدليون.



◆ حكم وعبر ◆

١ - اترك للآخرين المجد والشهرة وابحث أنت عن واقعية السلطة.

٢ - إما أن تحفظ السرّ، وإما أن ترفض معرفته والاطلاع عليه.

٣ - إذا ما تركت نفسك للغضب فإن الأخطاء ستقع عليك.

٤ - تصرف مع أصدقائك كما لو كانوا سيصبحون أعدائك.

٥ - عليك معرفة الشر كي تتمكن من منعه.

٦ - كن واثقا من أن كل علامات الحقد التي يبديها لك الآخرون صحيحة، لأن في الحقد، بخلاف الحب، ليس هناك رياء.

٧ - عندما تحرص على الحصول على شيء ما يجب ألا يلاحظ أي إنسان ذلك قبل أن تحصل عليه.

٨ - إنه لمن الخطورة أن تكون صلبا جدًّا في الأعمال التجارية.

٩ - أفضل الحلول دائما الوسط.

١٠ - احذر أولئك الذين تدفعك عواطفك نحوهم .

١١ - لا تدع أحدًا يقترب من سرّك ، كما لا تدع سكينًا مصرًا على ذبحك الاقتراب من رقبتك.

١٢ - احتفظ دائما ببعض الحذر من الناس، وكن على ثقة بأن رأيه فيك ليس بأفضل من رأيهم في الناس.

١٣ - عندما يكون حزب ما قويا لا تقل سوءًا عن هذا الحزب حتى وإن لم تكن منه.

١٤ - ما تستطيع تسويته سلميا لا تفتش عن تسويته عن طريق دعوى أو عن طريق الحرب.

١٥ - يبدأ الخطر في مجموعة من المصالح عندما يصبح أحد الأطراف قويًا جدًّا .

١٦ - السعادة هي أن تكون على مسافة متساوية مع جميع الأطراف.

◆ «الأمير» و«الوصايا» كمنهج سياسي ◆

في عام ١٥٣٢ ظهرت الطبعة الأولى من كتاب «الأمير» للفيلسوف الإيطالي نيقولا ميكيافيللي[١]، كدليل للحكام والسياسيين في الحكم وألاعيب السياسة. دعا ميكيافيللي في كتاب «الأمير» إلى قيام دولة إيطالية موحدة بحاكم قوي دون اعتبار للقيم الأخلاقية. وقد أثرت آراؤه وأفكاره التي بثها في كتبه في القادة والسياسيين ليس في أوروبا فقط، بل في العالم كله، وأصبحت من قواعد السياسة في معظم دول العالم، خاصة مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة» مهما تكن هذه الوسيلة منافية للدين والأخلاق، فالمهم هو تحقيق المصلحة العامة أو الخاصة.

استند ميكيافيللي في رأيه هذا إلى الواقع المنحرف للأكثرية من الناس، لا إلى مبادئ الحق والعدل والخير والفضيلة. فقد رأى أن أكثر الحكام لم يكونوا شرعيين، ولم يكونوا ملتزمين بالمبادئ الأخلاقية الفاضلة[٢]، وبذلك استطاعوا أن يصلوا إلى سُدة الحكم وأن يضمنوا استقرار حكمهم لفترة طويلة، بخلاف الحكام الشرعيين الذين كانوا يلتزمون بالمبادئ الأخلاقية المستندة إلى الحق والعدل والخير، والذين لم يحققوا لأنفسهم النجاح ولا المحافظة على الحكم.

---

(١) نيقولا ميكيافيللي فيلسوف إيطالي عاش في عصر النهضة في أوروبا، ولد في مدينة فلورنسا بإيطاليا في الثالث من مايو عام ١٤٦٩، وكان أبوه محاميا متوسط الحال. تقلد ميكيافيللي منصبا إداريا في الحكومة، وأصبح المستشار الثاني لها، وخلال عمله في هذا المنصب زار البلاط الملكي في كل من فرنسا وألمانيا وعدة مقاطعات إيطالية في بعثات دبلوماسية مختلفة، وانتظم في هذا السلك لمدة أربعة عشر عاما. بعدها مباشرة استولت أسرة «ميديتشي» على الحكم عام ١٥١٢ وسُجن ميكيافيللي في ذلك الوقت لأنه كان معارضا لها، ثم نُفي في العام التالي، وانزوى في بيته الريفي وعكف على دراسة التاريخ، فدون خلاصة تجاربه السياسية ومطالعاته المختلفة في كتابه الأمير.

لميكيافيللي أيضا عدة كتب منها : أحاديث ، فن الحرب ، جذور تفاح الجن وكتاب مختلف في نسبته إليه هو كتاب «حوار حول اللغة».

مات ميكيافيللي عام ١٥٢٧ ، ودُفن في سانتا كروس في فلورنسا.

(٢) هذا الرأي طبعا بناء على مشاهداته هو وما عاصره بنفسه في أوروبا بالذات، وبالطبع هذا الرأي لا ينطبق على كل الحكام.

وقال ميكيافيللي في كتابه: إن الحاكم يجب أن يكون ماكرا، والأمير يجب أن يحافظ على العهد حين يعود عليه بالفائدة فقط، أما إذا كانت المحافظة على ذلك العهد لن تعود عليه بالفائدة فيجب عليه عندئذ أن يكون غادرا!. واستنتج ميكيافيللي من ذلك أنه لا يلزم الأمير أن يكون متحليا بفضائل الأخلاق المتعارف عليها، ولكن يجب عليه أن يتظاهر بأنه يتصف بها، بل أن يبدو متدينا. ولهذا فإن الغاية في السياسة من وجهة نظره تبرر الوسائل المنافية لفضائل الأخلاق[1].

*** منهج مازاران :**

كتب ميكيافيللي كتابه «الأمير» وهو في منفاه الريفي بعيدا عن السلطة، منبوذ منها، وكان قد اعتزم أن يهدي كتابه إلى أحد أفراد أسرة ميديتشي آملا أن ينعموا عليه بمنصب جديد فيعود إلى حياة الخدمة العامة، ويخرج من عزلته ونكبته السياسية.

على عكس ميكيافيللي كتب مازاران وصاياه ودونها وهو في قمة السلطة، وفي خضم المعترك السياسي، وضمنها مفاهيمه العملية والمبسطة لكيفية ممارسة السلطة من قِبَل الحاكم والبقاء فيها لأطول فترة ممكنة.

ومن هنا تأتي أهمية ما دونه مازاران، فهو قد أتى بالجانب العملي وليس النظري أو الأيدلوجي الذي غلب على الأمير عند ميكيافيللي، واستلهم فيه التاريخ وتجارب الأقدمين.

وليس أدل على هذا المفهوم الواضح عند مازاران من قوله «كي نحكم دولة بشكل جيد، فإن المطلوب ليس الكرم، أو طيبة القلب، أو النية الحسنة، وإنما المطلوب فكر ثاقب وخصب، لا يمكن معرفة مخططاته، ويعمل لصالحه بدل الاستسلام لعواطفه.

وقد كان للنجاح الذي حققه مازاران في مجال السياسة ووصوله إلى تلك المرتبة العالية التي وصل إليها أثره الكبير فيما دونه حيث انطبعت على وصاياه سمات الثقة بالنفس، وبجدوى هذه الوصايا، كما عكست أيضا الخبرة الكبيرة

---

(١) سامحك الله يا ميكيافيللي. فكم من الجرائم والانتهاكات والأكاذيب والخدع السياسية ترتكب باسمك وبسبب نصائحك الثمينة!!

بطبائع الناس، الحكام منهم والمحكومين، وبدرايته الواسعة بدخائل النفوس، فهو لم يعزل نفسه عن الناس في برج السلطة أو الجاه، إنما شاركهم وخالطهم وعانى من متاعبهم، وسببوا هم له المتاعب، ونجح بحنكته وبدهائه السياسي في أن يروض هذه الجموع، وأن يحقق ما يهدف إليه دون التفات إلى صخبهم ومناوشاتهم له.

تُرى، ما الذي اتبعه مازاران لتنفيذ مخططاته، وكيف استطاع أن يصبح سيد فرنسا؟ ذلك ما ستعرفه عند تحليل ما جاء في وصاياه..

*** مازاران الداهية :**

كان مازاران يتمتع بفكر ثاقب، كبير، مجدد، وحس بسيط مباشر، وكان عنيدًا مثابرًا. يضع الطموح فوق حب الذات، ويرى أن من الأفضل ترك الناس يقولون ما يشاءون بشرط أن يتركوه يفعل ما يريد. كما كان مازاران بعيد النظر، واستجلائه لكوامن الأمور وما يحيط به، ولا يكتفي بتلك النظرة السطحية التي لا تلحظ إلا قشور الأشياء دون أن تتعمق لما خلف هذه القشور. نظر مازاران إلى الفرنسيين عندما بدأ في خدمة آل البوربون فوجدهم لا يزالون متمسكين بقوة السلاح، وأخلاق الفروسية العاطفية، متناسين أنهم يعيشون في قلب ثورة الفكر العقلاني التي بزغت في القرن السابع عشر، والتي حمل مشعلها الفيلسوف ديكارت، ولهذا جاء مازاران ليقول لهم بلغة واقعية بسيطة أن المطلوب هو نقل الدولة من مرحلة التكوين والولاء العاطفي إلى مرحلة الإدارة والتنظيم، أي من عالم المُثُل النبيلة، وأخلاق الفروسية الشهمة، إلى عالم المعرفة والعقل والتحليل.

فهو بالرغم من تجربته العسكرية، يدرك من خلال تجربته الذاتية بأن السلطة لم تعد بأيدي المقاتلين المدججين بالسلاح الذين يستطيعون تحديد مصيرها على أرض المعركة، وإنما أصبحت في مكان آخر بين أيدي أولئك السياسيين الهادئين الذين، بعد الاعتماد على المعلومات الدقيقة التي يجمعونها عن خصومهم يقومون عن طريق الدفع والإعزاء، باجتذاب هؤلاء الخصوم وإيقاعهم في الشراك المنصوبة لهم. لذا فإن من واجب الحاكم الذي قرر الدخول في لعبة السلطة المعقدة أن يتعلم الكثير من الأمور كي يتقن قواعد السياسة الدقيقة التي

يجب أن توصله إلى هذه المرحلة السامية من فهم معنى وأصول الحكم، وطرق المحافظة عليه.

الوصايا وتقدم تعاليم واضحة لكيفية سلوك رجل الدولة السياسي. وليس الأمير عند ميكيافيللي، الذي يخضع لقوانينه الخاصة، ويستوحى تجارب الماضي ليعمل على استقرار سلطته، في حين أن الرجل السياسي لا يولي أية أهمية للمنهج أو النظرية، لأنه لا يعرف إلا الحاضر، والحدث المرتبط به، ولذا فإن بمقدوره الوصول إلى أعلى قمة للسلطة دون أن يكون من أصل نبيل، أو أن يستند إلى قوة المؤسسة الدينية.

إن السياسي الناجح يجب أن يعي تمام الإدراك إمكاناته الشخصية، وصفاته النفسية، حتى يستطيع أن يتحكم في مشاعره، ويتعلم أن يراقب ويدقق في أفعاله، وألا يتهاون أبدا في هذه المراقبة، لأنه عندما يتمعن في هذه الأفكار سوف يكون قادرًا على أن يفكر بإمعان واستمرار في المكان الذي هو فيه، والظروف المحيطة به، ومركزه، ومركز هؤلاء الذين يتعامل معهم، وأن يوجه لنفسه النقد عند الضرورة.

إن السياسي يلزمه ويجب عليه أن يكون على إدراك كامل بطبيعة المحيطين به، وذلك لا يأتي إلا بناء على معلومات دقيقة، وليس مجرد الحدس فقط، وينبغي أن يكون لديه من الوسائل والحيل ما يستطيع به سَبْر أغوار كل شخص يتعامل معه، وأن تتوافر له الفِراسة اللازمة لكشف دخائل النفوس، ويشترك هنا مازاران مع مواطنه ميكيافيللي في استخدام كل وسيلة ممكنة للحصول على معلومات عن الخصم أو الصديق على السواء، سواء عن طريق التجسس، أو رشوة الخدم أو أية وسيلة أخرى ممكنة.

وكما أن على السياسي الحذر من الآخرين، فإن عليه الشك دائما بهم، لأن عناصر الشر تطغي دائما على عناصر الخير، وخاصة لدى أولئك الطامحين للحلول محله، وعليه معرفة كيفية إبعادهم عن طريقه، وتحويلهم من موقع الخصوم إلى موقع الأصدقاء إذا أمكن ذلك.

إن السياسي عندما ينجح في أمر ما ويثبت جدارته، فإن كل الأخطاء التي سوف يرتكبها بعد ذلك ستتحول لصالحه، لذا فإنه في بداية توليه أي منصب لا يضن بتفكيره أو بجهده، ولا يقدم على أمر دون أن يكون واثقا من النجاح، لأنه

بعد أن تترسخ سمعته بشكل جيد، فإن كل شيء حتى الأخطاء ستتحول لمصلحته.

وفي هذا العالم المليء بالخصوم والجواسيس، فإن خلاص السياسي يكون ، ليس في حيازته أقنعة متعددة فقط يرتدي منها ما يناسبه على حسب الظروف، وإنما أيضا بمعرفته كيف يحافظ على تواضعه وسره.

كما عليه أن يعرف كيف يدير وقته أثناء العمل، فينحي القضايا غير المهمة أو البسيطة الأهمية، ويهتم بالقضايا الأخرى بحسب توزيعه للوقت لا تتجاوزه بأي حال من الأحوال، ولا يأخذ وقتا أكثر من اللازم لتسوية الأشياء بشكل جيد، وإذا كان متعبا من قضية ما فلا يلح على نفسه، ولكن ينشط نفسه بممارسة الرياضة مثلا، وعليه أن ينظم نفسه ووقته في تناوله للأمور كلها بحيث لا يتركها نهبا لعوارض الأمور، تتقاذفه يمينا ويسارًا.

السياسي يجب أن يظهر في عيون شعبه عادلا، حتى وإن لم يكن كذلك، وعليه أن يدعم هذه الصورة بكل السبل الممكنة، مع الحرص على ألا تجلب لك أحكامك أعداءً، أو تفك عُرى صداقة أو حلف، وإنما عليك استعمال الكياسة والفطنة في ذلك «إذا كان هناك إنسان ما عليك معاقبته، فاستدرجه لأن يعترف هو بأنه مذنب، أو اطلب من شخص آخر محاكمته بعد أن تكون قد أوصيته سرًا بالنطق بحكم قاسٍ، حكم يتسنى لك تخفيفه بعد ذلك». «إذا ما كان عليك إصدار قرار ذي شأن كبير، الجأ إلى صيغة غامضة، وتكلم بصوت فيه نبرة خطورة لمصلحة وجهة النظر التي تريد الدفاع عنها».

السياسي الناجح لا ينساق وراء نشوة انتصار حققه، فيندفع في قرارات انفعالية يغلفها الفخر والكبر، وإنما يُعمل عقله وفكره السياسي ودهاءه في كل أموره، حتى يستطيع تحقيق النصر الكامل على عدوه، لأن القرارات الهوجاء قد تحول النصر إلى هزيمة، وتسحب البساط من تحت قدميه لتمنحه لأعدائه.

«عندما تكون منتصرًا في معركة ما ، لا ترد لعدوك أسراه من ذوي المقام الرفيع، لأنه إذا ما خانك الحظ، فإن عدوك سيكون لديه أسباب وجيهة للمحافظة عليك كي يسترد أسراه. بالإضافة إلى ذلك، احتفظ دائما بصلات دبلوماسية مع أركان عدوك وكبار رجاله..».

مارس مازاران السياسة بنجاح وطبق مبادئه في كل شئون حياته الخاصة والعامة، وفي كافة علاقاته مع الأصدقاء والأعداء، فحقق ما لم يتوقعه له الكثيرون من المحيطون به، بل على العكس توقعوا له الفشل الذريع والسقوط أكثر من مرة في تلك الشراك والحفر التي واجهته.. ثورة الفروند الأولى والثانية، صراع النبلاء وتحالفهم ضده، الصراع في أوروبا وخاصة عداء إسبانيا لفرنسا، الحالة الاقتصادية المتردية وعدم الاستقرار الداخلي، كل هذه الصعاب نجح مازاران في التغلب عليها ونجح أيضا في أن يسلم لويس الرابع عشر دولة مستقرة مهابة من جيرانها، يخشاها الجميع، بل أصبحت بحق سيدة أوروبا.

لم يبخل مازاران بنصائحه وتعاليمه على الملك لويس الرابع عشر، بل دربه منذ نعومة أظفاره على كل شئون الدولة، وأعطاه ما يختلج في قلبه من عواطف، وكان الملك الشاب يقول عنه: «إنه الوزير الذي يحبه الملك والذي يحب الملك».

اعتمد مازاران على عنصر الزمن أن ينصفه وينصف أعماله التي لم ترضِ المعاصرين له، ولم يستطع حتى البلاط الملكي أن يقدرها كل التقدير. وكما قال ريشيليو أستاذ مازاران: «إن عظماء الرجال الذين يعينون لحكم الدول أشبه بالمحكوم عليهم بالتعذيب، مع فارق واحد، هو أن هؤلاء يتلقون العذاب على سيئاتهم، أما أولئك فعلى حسناتهم».

لقد حقق مازاران نجاحاته في بلد غير بلده وبين أهل غير أهله، عاش غريبا بينهم، واعتبروه هم غريبا عنهم حتى موته.



◆ تعقيب ◆

تلك هي خلاصة أفكار مازاران في السياسة والحياة، أفكار تشكلت وترعرعت في بيئة غربية صرفة، عكست ملامح وثقافة تلك البيئة والمعايير التي تحكمها، وهي وإن كانت جاءتنا من العصور الوسطى، وبالتحديد في القرن السابع عشر، عصر النهضة الأوروبية، بما يعني أنها كانت من الأسس التي شكلت هذه النهضة وحكمت توجهاتها نحو الداخل والخارج، والخارج بالطبع نحن جزء منه، وبالتالي فقد تأثرنا بتلك التوجهات، وما ذكريات الحقبة الاستعمارية علينا ببعيدة، بل هي ماثلة الآن أمام أعيننا في العراق وفلسطين وأفغانستان وغيرها من بقاع العالم.

ولنا أن نتساءل : هل صحيح أن السياسة لا تحكمها قواعد أخلاقية أو معايير من الفضيلة والحق والعدل للجميع؟

ربما كانت إجابة هذا السؤال صعبة ومتشعبة هذه الأيام بالذات، في عالم أصبح تحكمه وحوش ضارية تظن الأخلاق القويمة ضعفا والفضيلة نقصا والعدل مستحيلا!!

لن أطيل في هذا التعقيب في تتبع إجابة هذا السؤال، بل سأقدم بصورة موجزة كيف تناول الإسلام ورسول الإسلام ﷺ الجانب الأخلاقي ومكارم الأخلاق ودور الحاكم والمعايير التي تحكمه لنقارن بينها وبين ما كتبه مازاران في القرن السابع عشر، وما نشاهده من وقائع السياسة اليوم فنقول :

- الأخلاق هي لب رسالة الإسلام إلى البشرية، فقد قال الله تعالى مادحا وواصفا خلق نبيه الكريم ﷺ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان ﷺ يقول: اللهم كما أَحْسَنْتَ خَلْقي فأحسنْ خُلُقي»، وكان من دعائه أيضا: «اللهم مَنْ وَلِى من أمر أمتي شيئًا فشَقَّ عليهم فأشْقُقْ عليه، ومن ولى من أمر أمتي شيئا، فرفق بهم، فارفق به»، وعن أنس رضي الله عنه قال: **«كان النبي ﷺ أحسن الناس خُلُقا»**.

وكذلك صفات الصدق والأمانة والتواضع والكرم والصبر من أخلاق النبي ﷺ سواء كرسول أو كقائد سياسي، فعن أبي أمامة الباهلي قال: خرج علينا رسول الله ﷺ متوكئا على عصا، فقمنا إليه، فقال: **«لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظِّم بعضُهم بعضًا»**. وحتى في قراراته السياسية وفي تعامله مع خصومه كان حليما صبورًا، ولم يلجأ إلى الغدر والمكائد لمحاربة أحد، لدرجة أنه عندما اشتد الأذى به في زيارته للطائف جاءه مَلَكُ الجبال يقول: يا محمد، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال النبي ﷺ: **« بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يُشرك به شيئا»** والأخشبان جبلا مكة، أبو قبيس، وقعيقعان.

كما قال عند فتح مكة لأهلها الذين أخرجوه منها: **«اذهبوا، فأنتم الطلقاء»**.

أما أخلاقيات النبي ﷺ في الحروب فقد بقيت نورًا يهتدي به كلّ محارب مسلم حتى يومنا هذا، وهي تتجاوز في عظمتها كل ما وضعته البشرية من قوانين وأعراف ومواثيق شرف. وعلى رأس هذه الأخلاق الدفاع عن الحق بكل قوة ودون مجاملة أو ضعف أو تهاون. فقد جاء في كتب السيرة أن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما كان واحدًا من جنود المشركين في غزوة بدر، فقال لأبيه بعد إسلامه: «لقد صَدَفْتَ لي يوم بدرٍ فلمْ أقتلْكَ»، فقال أبو بكر: «والله لو صَدَفْتَ لي لقتلتُكَ».

كما أن مبدأ مباغتة العدو ومفاجأته هو من المبادئ العسكرية التي كان يقرها النبي في ميدان القتال، وظلت الجيوش العربية والإسلامية تحافظ عليها، إلى أن جاء نصر أكتوبر ١٩٧٣ بواحدة من أكثر المباغتات العسكرية براعة في التاريخ.

وعموما فقد شدّد الإسلام على أهمية السلام في الحرب ، فاعتبر الحرب هي الاستثناء عن القاعدة وذلك لحماية الحق والضعفاء ونشر دين الله. ومن أخلاقيات الحرب في الإسلام قبول الهدنة إذا جنح العدو لها ما دامت لا توجد حقوق مسلوبة أو منتهكة بعد. كذلك شَدَّد الإسلام على أهمية الوفاء بالعهود وعدم التمثيل بجثث القتلى، وأمر بالعفو عند المقدرة، كما نهى عن تعذيب الأسرى أو وضعهم في ظروف سيئة.

ومن أبرز أخلاقيات الحرب في الإسلام النهي عن قتل المدنيين والتعرض لهم بسوء، إلا مَنْ يقدّمون العون لجيش العدو، فقد نهى الرسول ﷺ نهيا باتا عن قتل

الأطفال والنساء، والشيوخ والرهبان والمزارعين والتجار، ونهى عن هدم المنازل أو إحراقها أو قطع الأشجار وتسميم الآبار.

ومن أبرز الأحاديث النبوية الشريفة التي تناولت أخلاقيات الحروب ما رواه سليمان بن بريدة عن أبيه: أن رسول الله ﷺ كان إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: «**اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا**».

كما أوصى أبو بكر الصديق في خلافته أسامة بن زيد حين بعثه إلى الشام قائلا: «لا تخونوا، ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلا، ولا شيخا كبيرًا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا وتحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة، ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له».

*** هل سارت السياسة اليوم على هذه المبادئ ؟**

السياسة تنتهك كثيرا من الأخلاق الفاضلة، وهناك قائمة طويلة من تلك الأخلاقيات التي انتهكها سياسيون أو زعماء أو حكومات ودول. ومن أبرز الأمثلة على ذلك:

*** الكذب :**

استخدم الساسة الكذب في مواضع كثيرة للوصول إلى غاية ما، أو الهروب من مأزق خطير. ومن أشهر الأكاذيب الماثلة أمام أعين العالم حتى يومنا هذا الادعاء بوجود أسلحة دمار شامل في العراق وذلك لتبرير العمل العسكري ضده.

*** التجسس :**

حوادث التجسس كثيرة ومتعددة، ومن أشهرها فضيحة «ووترجيت» الشهيرة التي كان فيها الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون على علم بتجسس أجهزته على منافسيه في الحزب الديمقراطي في مبنى ووترجيت.

*** الفساد والرشوة :**

من فضائح الرشوة والفساد الحديثة نوعا ما فضيحة برنامج «النفط مقابل الغذاء» فقد أصدرت لجنة فولكر التي حققت في هذه القضية تقريرا يتضمن أسماء لشركات دفعت مبالغ سرية إلى صدام حسين للحصول على عقود في البرنامج وقد اعترف مسئول إدارة المشتريات في البرنامج بأنه تلقى رِشوة بالفعل من شركات تعمل مع المنظمة الدولية في إطار «النفط مقابل الغذاء».

*** تدنيس المقدسات :**

دنست قوات الاحتلال الإسرائيلية المساجد والمصحف الشريف عدة مرات خلال حملات المداهمة التي قامت بها ضد الفلسطينيين، وفعلت القوات الأمريكية الشيء نفسه في العراق.

*** وبعد :**

تعد قضية العلاقة بين الأخلاق والسياسة من أقدم المسائل الفلسفية المطروحة في مجال العلوم السياسية، لكنها الآن تطرح بقوة أكثر من أي وقت مضى، في ظل انحطاط القيم الأخلاقية لبعض الحكومات، الأمر الذي يتطلب معه ضرورة إيجاد علاقة ما واضحة بين «الأخلاق» و«السياسة».

فهل يمكن أن نقول إن هناك حكومات تطبق المعايير الأخلاقية والقانونية عند تعاملها مع شعوبها والدول الأخرى؟ وهل يجب أن يكون هناك وحدة بين الأخلاق والسياسة؟ وهل يجب أن تكون السياسة تابعة للأخلاق ونابعة منها؟ أم يجب فصل الأخلاق عن السياسة تماما؟ أم أن كلمة سياسة في حد ذاتها لا تتضمن مفهوم الأخلاق من الأصل؟

يستبعد الواقعيون وجود علاقة بين الأخلاق والسياسة في إطار السياسة الدولية، فليس هناك أي التزامات أخلاقية. بينما يرى المثاليون وجوب تلك الالتزامات ، لأن المسألة الأخلاقية ضرورية في أي عمل سياسي، حتى تكون هناك علاقة تربط القيادة بالجماهير ، فالحكومة في النهاية مجموعة من البشر، وليست مجموعة من الملائكة، لهذا يجب تحديد سلطاتها ودورها.

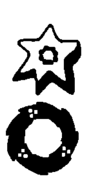
◆ المراجع ◆

- محاضرات في تاريخ أوروبا الحديث - د. محمد صبري الدالي .
- دليل الرجل السياسي (الكاردينال جول مازارين) .
  ترجمة وتقديم د. خضر خضر .
- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه - عباس محمود العقاد .
- قصة الحضارة - ويل ديورانت .

- Paul Guth. Mazarin, Flammarion, Paris.
- Pierre Goubert . Mazarin , Librairie Arthème Fayard, 1990.



◆ الفهرس ◆





جول مازاران الإيطالى الأصل الفرنسى الجنسية، رجل شق طريقة بأعجوبة حتى استطاع أن يرتقى ويصبح رئيس وزراء لويس الرابع عشر.. ساعده على ذلك ذكاء متوقد، وشخصية طموحة، وموهبة سياسية فذة.

ورجل بهذه العبقرية، وهذا الذكاء لابد أن تكون آراؤه السياسية وسلوكه الواقعى فى حياته الخاصة والعامة محل اعتبار وتقدير.. لأنها نبعت من تجربة عملية ووصلت بصاحبها إلى أقصى غايات المجد والشهرة.

جمع مازاران خلاصة فكره وتجاربه فى كتيب صغير فى حجمه، قيّم فى محتواه.. نال من الشهرة والذيوع درجة صرفت الناس عن تتبع باقى ما تركه مازاران من مذكرات وكتابات.

وقد أطلق على هذا الكتاب اسم «الدليل» أو الوصايا، ونحن إذ نقدمه للقارئ العربى نأمل أن نلقى الضوء على هذه الشخصية وآرائها السياسية التى تشكل رافداً من روافد الفكر الغربى المعاصر بسلبياته وإيجابياته.

الناشر

ISBN 977-277-443-7

